آداب عبد الهادي

امرأة من خزف



رواية

آداب إبراهيم عبد الهادي

إمرأة من خزف

رواية

إمرأة من حروف– رواية

تأليف: آداب إبراهيم عبد الهادي

رقم الموافقة:/٧٠١/ تاريخ٨/٩/٢٠٠٣

تصميم الغلاف:الفنان عبد الفتاح أبو سعدة

<u>يصدر قريباً</u>

امرأة و رجلان رواية
وكان سراباً مجموعة قصصية

الإهداء

إلى المعذبين في الأرض وأنصار السلم في العالم

وكل الذين يحلمون بالحرية

وإلى الأديب الراحل إبراهيم عبد الهادي والدي

آداب

المقدمة

كنت آمل أن يتخلل التفاؤل والأمل سطور هذا العمل المتواضع، لكن تزاحم الأحداث وتفاقم الخيانة وقساوة ذلك الجسد الجليدي المتحجر الذي لملم أجزاءه بخوف وجبن وبمعزل عن الرجولة الحقة، فما اهتز لدمع متدفق منسكب، ولا ارتعش لنبضة قلب حزين باكٍ، ولا تلفت لوجع روح منهارة، بل بقي أصلب من الصوان بلا روح وبلا حس إلى أن تحطم الجسد الآخر وضاع وأصبح بلا مأوى وبلا ملامح، فسكنته أرواح شيطانية وعاثت به فساداً، فدمرت وخربت وحطمت ما تبقى منه، وظل هذا الآخر يبحث بين الغيوم عن نور لشعاع شمس قادم ينصهر به ويأخذه إلى حيث الأمل والتفاؤل والنصر المنتظر، وليبقى الألم المعجون بعصير الروح هو الزاد لأنه الوحيد الذي لا تأكله النار ولا التراب والذي علينا أن نتزوّد منه دائماً وأبداً.

آداب عبد الهادي

- ١ -

– يا لها من دمية رائعة، انظر إلى صفاء عينيها، إلى ذلك البريق الآخاذ، إلى ذلك النور الذي يشع منهما، وكأنهما لامرأة حقيقية.

ينظر الشاب إلى رفيقته ثم يبتسم وينظر إلى الدمية، يحدق بعينيها ثم يلتفت ثانية إلى رفيقته ويتمتم:

أم م م... تشبه العيون الحقيقية، عيون امرأة حقيقية.

تطلق الفتاة ضحكة فوضوية وتتأبط ذراع رفيقها ثم تتجه نحو الشارع وهي تتمتم

— إمرأة حقيقية أم م م...

ثم تهزّ رأسها وتمضي.

كانت دمية بين عدة دمى معروضة في واجهة ملابس، وكان قد وُضِع عليها رداءٌ أبيضُ من الحرير الشفاف، الذي يكشف عن الكثير من تفاصيل جسدها كتدويرة صدرها الرائع والتفاف ساقيها الممتلئتين.

كانت هذه الدمية الأنيقة في واجهة مخزن من أشهر مخازن الألبسة النسائية وأضخمها، يحمل هذا المحل اسم «مون كور آفو» كان في منتصف السوق الرئيسي في تلك المدينة.

تقترب امرأة متوسطة في العمر من هذه الواجهة الزجاجية وبرفقتها رجل كبير في السن، ويبدو الفرق واضحاً بين عمريهما، تقف المرأة، متواجهة مع الدمية التي يعرض عليها ذلك الرداء الحريري الأبيض وتقول مندهشة:

- أوه،يا له من رداء جميل ذلك الثوب،وتشير بيدها إلى الدمية.

يجيب الزوج مسرعاً:

- بل الدمية أجمل من الثوب بألف مرة.

تصرخ الزوجة في وجه زوجها غاضبة منفعلة:

حتى الدمى، إنك رجل شرس، متوحش، ألا يكفيك ما تقتنصه من النساء في هذه المدينة، إنك لم تترك لي أية صديقة، لقد دمرت علاقاتي بكافة صديقاتي، إنك لا تشبع أبداً ، مع أنني لم أقصر معك في شيء، وتقول دائماً بأنني أسعدك وأمتعك، فهلاً

أخبرتني متى ستكف عن سخافاتك هذه وتعلقك غير المبرر بالنساء بمختلف أنواعهن وأشكالهن وأجناسهن.

يغضب الرجل من كلام زوجته وتصيبه رعشة في يديه ورجفة في صوته فيحاول إسكاتها واضعاً يده على فمها:

- اصمتي يا امرأة اصمتي، ستجمعين الناس من حولنا، اصمتي، اصمتي أ أ أ ه ه ... أكاد أجن.

وبنصف استدارة عفوية نحو الدمية يلحظ الرجل ابتسامة حزينة قد رسمت على وجهها فيقف متجمداً في مكانه جاحظ العينين وكأن مساً من الجنون قد أصابه، فتنتبه زوجته إليه مستنكرة صمته المفاجئ.

- ما بك يا رجل، تكلم، لِمَ صمت، ما بك...

لكنه بقي واقفاً مشدوهاً، مذهولاً، جاحظ العينين، فاتحاً فمه والزوجة ترمقه وهي في حيرة من أمرها، فلم تلبث إلا أن أمسكت بيده، محاولة جرّه إلى الأمام، لكن الرجل حاول المعارضة فصرخت به بعصبية:

– ما بك يا رجل إنها دمية.

يبتسم الرجل ويحدق بزوجته ويقول متمتماً....

– إنها تبتسم.

فتنظر المرأة إلى الدمية لتجدها صامتة، جامدة، قطعة من خزف، لا روح فيها ولا دم، فتتأفف وترمقه بشفقة، ثم تمد يدها وتمسك بيده متصنعة الحنان:

– تعال يا حبيبي تعال، على ما يبدو أنك أصبت بدوار، كما أنني أرى أنك متعب مرهق.

وسحبته من يده ثم أوقفت سيارة أجرة ودفعته إلى داخلها مرغماً وانطلقت السيارة، وبقيت الدمية الخزفية في الواجهة ترقب وتنظر وتتأمل الغادين والصادين والمتأملين لها دون أن ينبض فيها عرق أو يهتز لها جفن أو يخفق لها قلب.

* * *

- ٢ -

قلت لكم لن أتنازل ولا بمقدار واحد بالمئة، لن أتنازل، لن أتنازل، انتهى الكلام كذلك الأمر،انتهى الاجتماع ولا أرغب بالمزيد من الكلام.

- لا يا خواجة، لست أنت من يحدد إن كان الاجتماع انتهى أم لا، أنسيت أم تناسيت من نحن، ومن أين نحن قادمون.

- يا «سيد»...

يصرخ السيد مقاطعاً ثم ينهض: بل يا خواجة، عليك أن تفهم بأنك أداة، أداة فقط، عليك أن تلتزم حدودك، والآن أستطيع أن أقول لك «أنا» بأن الاجتماع انتهى.

كان هذا «السيد» طويلاً ممتلئ الجسم، أبيض اللون، أشقر الشعر، أخضر العينين.

كان يجلس في صدر طاولة مستطيلة الشكل، والخواجة في الطرف المقابل له. وعلى الجانبين يجلس اثنان من طرف (السيد) والجانب الآخر اثنان من طرف الخواجة.

* * *

يخرج «السيد» ويتبعه الآخران، بينما يقف الخواجة في مكانه لبرهة، وينظر إلى سقف الغرفة وكأنه أضمر لأمر ما، ثم ينظر إلى الرجلين اللذين يرافقانه ويقول: هيا اتبعاني.

كان أحد الرجلين ضخماً مفتول العضلات مشدود الجسم وكأنه ملاكم في الأربعين من عمره، أما الآخر فقد كان شاباً وسيماً لطيفاً ثلاثينياً طويلاً، نحيلاً، أسمر الوجه، أسود الشعر تميزه ابتسامة رائعة وجذابة تظهر جمال أسنانه وكأنهما اللؤلؤ بذاته، تقدم الجميع من واجهة عرض الملابس، مد الخواجة يده وفتح بابها الزجاجي بالمفتاح، تقدم المرافقان وحملا الدمية الخزفية وأخرجاها، ثم أدخلاها إلى الغرفة التي خرج منها الخواجة مع ذلك (السيد) وهي محمولة على الأيدي وعلى مرأى من الزبائن والزائرين.

* * *

-٣-

كانت تتلفت يمنة ويسرة وما أن وصلت إلى الباب الخارجي للمحل والموازي للواجهة الزجاجية حتى أطلقت العنان لأرجلها وانطلقت هاربة، كانت في العشرينات وتحديداً في الخامسة والعشرين من عمرها، ترتدي بنطلون الجينز الأزرق والتيشورت الأبيض البسيط وبيدها حقيبة نسائية سوداء اللون، بسيطة المظهر.

انطلقت باتجاه الشارع، وأخذت تجري، تجاوزت السيارات والمارة، كان الطريق طويلاً لكنها قطعت المسافة بفترة زمنية قياسية، كانت تمتحن قدرتها على المشي، وعلى الجري وعلى الصبر وعلى تحمل العذاب والمشاق، كانت تراهن على الزمن، زمنها هي وتراهن على نفسها مع نفسها وكانت تنجح، ((كيلومتر))مشتها سيراً على الأقدام،بل ((ثلاثة كيلومترات)) إنها تؤكد لنفسها بأن المسافة تجاوزت ((الثلاثة كيلومترات)) وكم استغرق معها من الوقت، أقل من نصف ساعة عشرين دقيقة فقط، وربما أقل، كانت دائماً تقول، المسافة قريبة ولا داعي لوسيلة نقل.

وصلت إلى غرفتها البسيطة والفقيرة في أول شارع في حي فقير بعد السوق الذي تعمل فيه.

تقدمت نحو الباب ببطء شديد، نظرت إليه كان باباً حديدياً بني اللون متوسط الحجم، استراحت العناكب على زواياه وأسدلت ستائرها لتغفو بهدوء- الباب موصد- قالتها داليا وابتسمت، الباب موصد- والأبواب موصدة- والطرق طويلة وشاقة ووعرة، والعناكب تستريح.

ثم مدت يدها إلى حقيبتها وأخرجت منها مفتاحاً ملبساً بالنايلون الأسود على رأسه، وضعته في قفل الباب وفتحته، فأصدر زعيقاً أزعجها بل كان كالمخرز ينخر في رأسها.

دخلت الغرفة وعلى غير عادتها سبرت المكان جيداً، وقفت بالباب ودققت النظر بالسرير الخشبي القديم الموضوع على الطرف اليميني من الغرفة وبجانبه طاولة خشبية بسيطة وبمحاذاته كرسي بلاستيكي لكنه جميل وأليف، إنه أهم ما في هذه الغرفة من أثاث، لو أن هذا الكرسي غير موجود، لكان هناك مشكلة عويصة. لأن هذا الكرسي تارة يصبح «طربيزة»

طاولة صغيرة، وتارة يصبح خزانة ملابس وأخرى مكتبة، لكن المهم هو أنه يبقى كرسياً، آه لولا هذا الكرسي لما كانت الحياة شاقة، ولما كانت قاسية ومريرة، لماذا اخترع الكرسي، كان البشر في السابق مرتاحين لكن لعن الله ذلك الشخص الذي اخترع الكرسي، ((الكرسي سبب البلاء)).

واقتربت داليا من هذا الكرسي وهمّت بتحطيمه، لكنها استدركت، إن هذا الكرسي ليس لها، إنه لأصحاب الغرفة التي استأجرتها وقد تغرم بثمنه لذلك... لا... لا... ليبقَ الكرسي كرسياً... لا شأن لي به...، ... المشكلة ليست مشكلتي... المشكلة مشكلة الكرسي، أنا لا شأن لي به، ولا شأن لي لا بكرسي ولا بطاولة لا مستديرة ولا مستطيلة. وأغلقت الباب خلفها بعصبية، ثم تقدمت إلى خزانة ملابس حديدية صغيرة وبجانبها مشجب خشبي، خلعت ملابسها، كلها على الإطلاق وعلقتها على المشجب ثم فتحت باب الخزانة وأخرجت قميصاً أبيض شفافاً للنوم وقبل أن ترتديه استدارت نصف استدارة وتناولت نصف مرآة موضوعة على الطاولة ورفعتها إلى مستوى وجهها ثم حدقت في عينيها وغاصت بهما وأبحرت

كما يحر العاشق في عيني محبوبته وانتقلت إلى تدويرة أنفها ثم إلى فمها، دققت النظر بوجهها وتفاصيله وقالت بصوت متهدج حزين: ما أجمل أن يكون المرء إنساناً، أنا إنسان، أنا امرأة، إنني أتحسس جسدي، أتحسس تفاصيلي، يديَ يدا امرأة حقيقية، وجسدي جسد حقيقي، من لحم ودم، وعيناي،عينا فتاة عاشقة، إنني أتألم، وأفرح، إنني أشعر بالحرارة وبالبرودة، أسلّم بالله وأحس بوجوده، وأتناول طعامي كبقية البشر وينتابني إحساس بالشبع وبالجوع أيضاً،... يا الله... يا الله... يا الله ما أجمل أن يكون المرء إنساناً، ما أجمل أن تكون أجسادنا حقيقية تتنقل، تأتي وتروح، تتسخ وتنظّف، أنا إنسان، أنا إنسان، أنا حرة الآن.

* * *

– ٣ –

استلقت على سريرها البسيط وسبرت الغرفة مرة أخرى، تأملتها وأطلقت زفرة ثم استقر نظرها على صورة قديمة كانت قد ألصقتها على جدار غرفتها، تأملتها كثيراً، كانت الصورة

لشجرة فارعة الأغصان لها جذع قديم يجلس بجانب الجذع رجل قديم أيضاً تدل هيئته على أن الزمان أكل عليه وشرب، كان هذا الرجل القديم يرتدي قميصاً أبيض وسروالاً أزرق مهترئ، كان رأس هذا العجوز متدلياً على صدره وكأنه ملتصق به ويداه على ركبتيه ويقف بجانبه رجل آخر أنيق قوي البنية لكنه ليس قديماً، يضع نظارة سوداء على عينيه وسلسالاً برقبته ويرتدي روب (ديشمبر) أنيقاً ويداه في جيب الروب، بينما كان حافي القدمين.

ابتسمت داليا وقالت ما الذي أحضر هذا الرجل الأنيق إلى هذا المكان، ثم أطلقت ضحكة اهتزت لها أرجاء الغرفة، ضحكة ساخرة من القدر، أطلقت عقبها زفرة وعادت لتلقي بجسدها على السرير بينما تشابكت يداها تحت رأسها ونظرها محدق بسقف الغرفة وقالت بصوت بعيد متعب خافت: إن الذي أحضر ذاك الرجل، هو الذي أحضرني إلى هنا، ثم ناقضت نفسها وقالت لا... لا... إن رساماً ما هو الذي أحضر الرجل الأنيق إلى تحت الشجرة، لكن بالنسبة لي، إن الله هو الذي أحضرني، إلى تحت سقف وليس إلى تحت شجرة، ستمر أيام

كثيرة وأنا هنا في هذه البلدة التي لا صلة لي بها، غريبة جداً عنها وغريبة هي عني، لماذا أنا هنا، لماذا، إنني الآن بعيدة جداً عن موطني، موطني بعيد عني، وأنا بعيدة عنه، كم كنت أتمنى أن أكون الآن في طريقي إلى موطني، عائدة من عملي، ألقي السلام على الجيران وعلى أولاد الجيران على الشباب والبنات على جديَّ الغاليين، أوه أنا هنا، وستمر أيام كثيرة وأنا هنا، في هذا المكان الحقير والأليف والحبيب، وأجهشت بالبكاء واستغرقت في نوم عميق.

* * *

— ٤ —

كان الليل ستاراً لقذاراتهم، لكن مهما أخفيت القذارة لابد أن تصعد منها رائحتها القاتلة لأن رائحة الجيف إن لم تقتل تخدر، وغريب أمرهم، ما زالوا إلى الآن على قيد الحياة.

لا شيء واضح، النور مطفأ والظلمة تعم المكان ماذا يفعلون، كيف يتحركون ومن معهم، لا شيء واضح، لكنني متأكد من الأمر، وسأراقبهم.

وعلت أصواتهم الخافتة، وأصبح هناك صوت بعيد بعيد، لكن ما معنى هذا، ماذا يقولون؟ وازداد الصوت ارتفاعاً كان صوت مجموعة تردد أحجية غريبة:

راية الجحيم إلى الأعلى

راية الشيطان إلى الأعلى

الشيطان يعبر عن كلمات الحرب

والجنة ترتعد من الخوف

اللعنة عليهم قالها الأبله، آه لو أنني أستطيع لكسرت الباب ودخلت وقتلتهم واحداً واحداً، وهمَّ بالوقوف واتجه إلى الباب ورفع الفأس الموجود في يده إلى مستوى رأسه وحاول أن يضرب الباب ثم توقف في اللحظة الأخيرة وقال: لَهْ يا أبا حنون... انتظر، عليك ألاّ تفشل العملية، انتظر والوقت آت، كان أبو حنون رجلاً أبلهاً يرتدي ملابس مزارع أو كما يسمونه «جزاز العشب» نصف أصلع، شعره أشعث له شارب طويل وثخين نحيل محني الظهر دائماً، يمشي كالأعرج مع أنه ليس أعرجاً، للحظة انتصبت قامته ثم استدرك وقال...

لا... أنا رجل أحدب ولا أستطيع أن أقف منتصباً... سأفكر في شيء آخر، لكن بعد أن أنتهي من جز هذه الأعشاب الضارة التي تنمو بين هذه الأشجار المثمرة والمتطفلة على سوقها وأغصانها... سأفكر... سأفكر وفي الصباح رباح.

* * *

— ٥ —

في الصباح نهضت داليا من سريرها كالملسوعة، كانت قد غطّت في نوم عميق. نامت الليل بطوله ولم تستيقظ إلا في صباح اليوم التالي، حتى أنها لم تتناول طعام ليلة أمس، نظرت إلى نفسها، ودققت النظر في تفاصيلها ثم ضربت جبينها بيدها في حركة متذمرة وأطلقت زفرة حارقة.

كيف حصل هذا، كيف نمت كل هذا النوم، أكيد ولا شك أنني كنت متعبة جداً وكنت أيضاً جائعة، حان موعد عملي ولا أملك إلا دقائق قليلة، قد لا تكفي حتى لتنظيف جسدي، لكن قليلاً من الكلمات مع قليل من الماء والصابون يكفي لتنظيف جسد امرأة خزفية.

ووضعت داليا دلو الماء النحاسي على الغاز وحيد الرأس، وأشعلت النار تحته ثم اتجهت إلى خزانة الأكل الخشبية الموضوعة في زاوية الغرفة المقابلة لخزانة الملابس فتحتها وأخرجت ما بداخلها، كان في أحد الأطباق بقايا من اللوبياء التي طبختها أول أمس وهناك عدد لابأس به من حبات الزيتون ونصف قطعة من الخبز ونصف قرص طماطم «بندورة» وبيضة واحدة، وضعت الأطباق على الطاولة الخشبية ثم أعادت البيضة إلى الخزانة قائلة: سأدعك إلى يوم غد، على كل حال كان لنومي الطويل ليلة أمس فائدة كبيرة، لقد وفرت وجبة غداء وعشاء، ممتاز أستطيع أن أتناول هذه الوجبة بدل ليلة أمس وكأنني في ليلة أمس لم أكن موجودة، وهذا جيد، يوم واحد، وكأنني لم أكن موجودة، أليس هذا أفضل من أن يكون العمر كله كأنه لم يكن، حسناً لابد من كوب شاي عوضاً عن اليوم الذي لم يكن. وتوقفت عن الطعام لتحضر كوب الشاي، ثم تذكرت أن الشاي منتهٍ منذ ثلاثة أيام، فعادت لتتابع طعامها متمتمة: إيه... نطلب كوب شاي مقابل يوم من عمرنا، فيتضح لنا أن كوب الشاي أهم من نصف العمر من يبيع

عمره مقابل كوبين من الشاي ونصف العمر مقابل كوب واحد، أكيد لا حاجة لي إلى شاي الآن ولا حتى غد ولا بعد غد.

متأخرة عن موعد عملي لا مشكلة... ما دام هناك ماء وصابون وكلمة... لا مشكلة... وإن كان الشاي مقطوع.

وبسرعة خلعت داليا روب النوم وأمسكت «بكوب» وصابون وليفة جلي خاصة بأواني المطبخ وبدأت بجلي «عفواً» بتلييف يديها وساقيها ثم بطنها وظهرها... إلى أن انتهت.

وقبل أن ترتدي ملابس ليلة أمس وقفت أمام مرآة يزيد طولها على الخمسين سنتيمتراً كانت على باب خزانتها، ودققت النظر بجسدها، ابتسمت وقالت: إنه جميل، لن أفرّط به لأجل أحد إنه لي، الوحيد الذي أملكه في هذه الحياة، إنه كنز ثمين تفاصيلي رائعة، متناسقة، قامتي ممشوقة، كم سيكون سعيد حظه الذي سيحظى به، ترى من سيحظى بهذا الجمال الرائع الذي أعطاني إياه الإله، الواحد الأوحد، من يا ترى،... ثم ارتدت ملابسها وزججت حاجبيها وعقصت شعرها بمنديل

أزرق وتناولت حقيبتها اليتيمة وخرجت من غرفتها إلى الشارع لتستقل أول حافلة ركاب تصادفها، بأقل من جزء من الثانية تلفتت حولها يميناً ويساراً ثم ابتسمت وأخذت مكاناً لها في أحد المقاعد أو في المقعد الوحيد الفارغ في الحافلة. كانت محشوة بالركاب، لم يكن الطريق طويلاً بين بيتها أو عفواً بين مكان إقامتها وعملها، لكنها أحست بأن المسافة تزيد عن الـ / ٥٠ / الخمسين كيلو متراً.

بلحظة واحدة قرأت وجوه الركاب جميعهم، وبدون قصد تفرست في هذه الوجوه، وحاولت جاهدة، أكثر من مرة أن تخفي ابتسامة ستصدر عنها لأن إحدى الراكبات كانت تغمض عينيها وتغط في نوم عميق وتطلق شخيراً مزعجاً، أزعج الشاب الجالس بجانبها لدرجة أنها اعتقدت بأنه سيوقف الحافلة ويهبط منها، لكن وجه شاب آخر متوسط في العمر، نحيل، تبدو الفوضى واضحة على وجهه وملبسه وطريقة جلوسه، آلمها لَم يبدو عليه من الهم والغم، كان حزيناً وكأنه يعاني آلاماً وأحزاناً كثيرة في الحياة، حدّقت في الوجوه أكثر فرأت نفس الألم في وجوه معظم الركاب، غريب أمر هذه الحافلة إنها تضم أنواعاً

وأجناساً شتى من الناس، تبدو للوهلة الأولى أنها كبيرة واسعة ضخمة لكنها في الواقع أضيق من خرم إبرة وأصغر من رأس دبوس، غريب أمر هذه الحافلة، وغريب أكثر أمر ركابها، كأنهم راحلون إلى عالم آخر، أو كأنهم لا يدركون اللحظة التي هم فيها الآن وكأنهم بقايا أناس وكأنهم... وكأنهم يلعنون اللحظة التي دخلوا فيها إلى هذه الحافلة أو نادمون لقدومهم يلعنون من كان السبب في صعودهم إليها، معظمهم يلقي باللوم على والديه، لأنهم السبب هم السبب وهم الوحيدون، هم يريدون لأولادهم أن يذهبوا إلى أعمالهم ولكبارهم أن يقدموا لهم لقمة العيش. هم السبب هم وحدهم ولا شك في ذلك لا شك ولا داعي للنقاش لذلك جميع الوجوه مكفهرة، جميع الوجوه متألمة، جميع الوجوه تعسة، جميع العيون دامعة، جميع القلوب واجفة، إنها عيون الفقراء، وقلوب المتعبين، إنها الحياة المؤلمة،... وفجأة نظرت داليا إلى الشارع، لتلحظ أنها تجاوزت مكان عملها بمسافة لا بأس بها فما كان منها إلا أن أطلقت صرخة في الحافلة تنبهت لها كل العيون والقلوب، أطلقت صرخة أربكت القائد أو عفواً سائق الحافلة.

كان لابد من هذه الصرخة، بل أنها ضرورية، فلو لم تصرخ داليا لما تنبه أحد وخسرت يوم عمل كاملاً، لابد من هذه الصرخة بين الحين والآخر، لابد من صرخة بل صرخات توقظ من يغطّ في سبات عميق أو من يشخر وهو مستيقظ، لابد من صرخة تزيل الدمع من العيون وتعيد القلوب إلى هدوئها واتزانها.

وأوقف السائق الحافلة للحظة، بل لثوان، أفقدت التوازن عند الركاب. التوقف للحظة أو لثانية فقط يفقد التوازن ويختل الوضع، فكيف إذا كان الوقوف لسنوات ولأجيال ولقرون، ولعصور؟ وصرخ السائق بوجه داليا، كان فظاً، كأنه لم يتعلم اللباقة مع الجنس اللطيف، وقال:

- ماذا...

- تجاوزت مكان عملي. قالتها بصوت خافت حزين.

- إيه هل كنت نائمة، يصعد الراكب إلى هذه الحافلة وكأنها غرفة نوم، ينام ولا يستيقظ وإذا استيقظ أزعجنا، لا يا عمي، ناموا... ولا تستيقظوا، لأن يقظتكم تربكني، يختل النظام في

الكون إن استيقظتم، يختل التوازن، بترين الحافلة ينتهي والمكابح تتعطل، فلا تستيقظوا... لا تستيقظوا، نومكم مريح، مريح وهو المبتغى. هيا اخرجي، انزلي، اهبطي من الحافلة، لكن لا تنامي في الشارع، أوف...

* * *

- ٦ -

الخواجة سعيد صاحب محل الألبسة الذي تعمل فيه داليا، كان رجلاً سمجاً، فظاً، غليظاً، متوسط الطول، مكتنزاً، مربوع القامة، أكرشاً، ذا شاربين غليظين ملفوفين أسودين كلون عينيه وكلون الحقد والشر واللؤم الذي يقبع في أعماقهما. أما قلبه الأسود، كلون غليونه الذي لا يفارق أصابعه الغليظة المكتسية بالشعر الأسود، لا تعرف الرحمة والرأفة طريقاً إلى قلبه الجامد وإلى نفسه الجشعة وإلى أخلاقه العفنة، كأنه كتلة قذارة، وداليا لا تطلق عليه منذ أن عملت عنده إلا اسم كيس القذارة، يتاجر «كيس القذارة» بالناس كما بالأشياء لا فرق، لكل سعره، سعر المرأة كسعر الفستان وقد يزيد سعر الفستان عنها قليلاً...

دخلت داليا المحل وهي راكضة لاهثة، مرتعبة، خائفة من كلامه القاسي. كان قلبها يخفق بسرعة وازدادت خفقاته عندما رأته، كأنه الجحيم، كأنه الشيطان، كأنه النحس في الحياة، أو نار جهنم، كأن رؤيته عقاب المذنب والمخطئ.

كان يتحدث مع بعض عماله لحظة وصولها، رمقها بازدراء، وقال لها بوقاحة:

- ربع ساعة تأخير ستخصم من أجرك.

حاولت أن تنطق بكلمة، لكنه لم يمهلها حتى انهال عليها بسيل عرمرم من الشتائم.

لم تستطع المسكينة أن تنبس ببنت شفة أو تجيب حتى بإشارة أو حركة من يدها،بل ظلت صامتة جامدة مذهولة، منتظرة الآتي وما هو الآتي يا ترى؟ هل من بصيص نور، هل من أمل يعيد الحرية لهذا الجسد الخزفي المغتصب، هل من أمل أم سيستمر هذا الاحتلال. وتقدم منها رجل وامرأتان وأمسكاها من يدها وأدخلاها إلى الغرفة الداخلية «أو غرفة العمليات كما تسميها

داليا» وبدأوا بتهيئتها وبوضع بعض المساحيق والمبيضات والمطريات والألوان عليها، إلى أن أصبحت جاهزة للعرض.

حملها رجلان آخران وفتحت إحدى المرأتين اللتين كانتا برفقتها باب (الفاترينة) الزجاجية وقبل أن تُدخل داليا (الفاترينة) تقدم منها الخواجة، وحذّرها قائلاً:

- اسمعي: أي حركة، أو ابتسامة أو رفة جفن ستسرحين على الفور إني أراقبك جيداً على شاشة (المونيتور) مفهوم، تسرحين لا تنسي، لم تجب داليا، لم تنطق بحرف، بل بقيت كأنها دمية حقيقية، كأنها جماد، كأنها تمثال لا روح فيه، ولا حياة، وأدخلت إلى (الفاترينة)، أدخلت إلى القمقم الصغير، وتحول المارد إلى دخان، وأغلقت فوهة الزجاجة وقبع المارد فيها، ينتظر وينتظر، أول فرصة لكي يعلن للملأ بأنه سيثور يوماً ما، وإذا ثار المارد فياويل الأحياء، يا ويلهم من ثورة مارد مرتقبة. يا ويل الخواجة و(االسيد) والآخرون، يا ويلهم.

وأخذت وضعيتها المعتادة لمدة ساعتين، كان في الفاترينة غصن شجرة من البلاستيك، منظر غصن، مجرد منظر، لكم كان من

المؤسف أن يصبح الشجر كالبشر ويرتضي بعيش الذل، يرتضي أن تؤخذ منه الحياة ويحوّل إلى غصن من البلاستيك، لكنه وإن أصبح بلاستيكياً يرفض إلا أن تكون له أهميته وقيمته وفائدته لذلك كان هذا الغصن البلاستيكي ذا فائدة كبيرة لأن داليا تسند يدها المرفوعة دائماً عليه فكان يخفف من تعبها ويؤنسها في وحشتها وينسيها جمودها الطويل.

بحثت داليا عن الحياة، بحثت عنها في قمعها، فلم تجد منها شيئاً، أرادت أن تلتفت إلى الوراء قليلاً، لكن اللفتة إلى الخلف ستكون بمثابة ضربة قاضية تقصم ظهرها، فتسرّح من عملها وتطرد خارج المحل وتسرح في الشوارع مع السارحين والسواحين.

لذلك تجمد نظرها على طفلين صغيرين فقيرين، بنت وولد، كانا يجلسان على الأرض بالقرب من حاوية القمامة الموجودة بجانب الرصيف. البنت في التاسعة أو في العاشرة والولد يقربها بالعمر أو أكبر قليلاً، كانا جميلين رغم فقرهما وثيابهما المتسخة، كانا رائعين تنبض الحيوية في كل جزء منهما يشعرانك أن الحياة جميلة ويبشرانك بأمل قادم وخلاص أكيد، كانا جريئين،

مدّ الولد يده إلى وجه البنت ثم سحب رأسها باتجاهه وقبلها على فمها ووضعت البنت يدها على رجل الولد ثم تقدمت منه وقبلته على فمه وبدأ الولد يتحسس البنت، وتمازجت الروح بينهما وقررا أن ينجبان ثورة وعاصفة وريحاً ومطراً ورعداً وبرقاً ومارداً ويكونان أصغر أبوين في الحياة ليعملا على إيجاد فلسفة جديدة ووضع منهاج جديد وقاموس جديد ولغات جديدة يمسحان منها كلمة خنوع وذل واستكانة وجبن وضعف ونوم وخواجة والظروف قاهرة.

وابتسمت داليا دون أن تبتسم، وأكيد لم يلحظ الخواجة سعيد تلك الابتسامة، ثم تذكرت عندما كانت صغيرة، في مثل عمر هذه البنت. كانت في طفولتها شقية، وذكية وكثيرة الحركة وجريئة، كانت مدللة جداً لوالديها الفقيرين، مدللة رغم الفقر المدقع الذي تعيشه في بيت فقير صغير وحيدة مع والديها اللذين كانا يصرّان على تعليمها وتثقيفها وقد أفلحت في العلم كما كانت تقول، لكنها لا تحبه كثيراً ولن تحبه لأن للعلم أصحابه وللفن أهله وهي لا من هؤلاء ولا من أولئك.

واقتحم خيالها دادي، دادي ابن الجيران، وسافرت بخيالها إليه عندما كانت في مثل عمر هذه البنت، كانت معجبة به وتحبه، فهي تعرف الحب مذ كانت في العالم العلوي. ابتسمت، وتذكرت كيف كانت تتعامل معه، وفي السنة التالية وقع حبها على ابن الجيران الآخر والسنة التي تلتها أحبت ابن الجيران الثالث. وفي كل سنة كانت تحب ولداً من أبناء الجيران، إلى أن أحبت صبيان حارتها الشعبية كلهم. لكن ما كان يعذبها ويقلقها هو أن أحداً من أولاد الجيران لم يلحظ هذا الحب أو يشعر به، أو حتى يدرك أصلاً بوجوده، كان حباً من طرف واحد، حباً طفولياً بريئاً، بينها وبين ذاتها.

رغم أنها كانت تحاول دائماً الاقتراب منهم في أوقات اللعب، لكن لم يحدث أبداً أن تحدثت مع أحد ممن كانت تكن لهم الحب والإعجاب، اللهم غير الولد الأول عندما كانت في التاسعة وطوال سنتها اليتيمة التي رافقته بها، وبعدها في السنوات التالية تمنت أن يعجب بها أحد الأولاد ويبادلها الحب ليصبحان صديقين دائمين لكنها في كل مرة كانت تكتشف أن الولد الذي تحبه يحب بنتاً أخرى من بنات الجيران ومن ذلك

الحين نقمت على كل الأولاد والبنات في حارتها وقررت ألا تحب ولداً آخر في مثل سنها، وحمدت ربها أن الأولاد لم يلحظوا تأثير الحب عليها ولم يشعروا بذلك الحب، لذلك قررت وهي في الخامسة عشرة من عمرها أن تحب شاباً كبيراً غير الأولاد الذين يماثلونها في العمر، غير أولاد حارتها الصغار،...

وصدفة وقع خيارها على أكثر شبان الحارة جمالاً وكياسة وأناقة وجاذبية وكان هذا هو صدقي، ذلك الشاب المتعلم المثقف، كان صدقي يكبرها بسبع سنوات، راقبته تتبعته، ترصدت له، أحبته بصدق ومن أعماق قلبها، أحبته بكل ما فيها من حب ونسيت أولاد الحارة.

كان صدقي مغروراً، لكنه طيباً، كثير المزاح مع أن هيئته تدل على الجدية والقسوة، كانت تسمع من نساء الحارة أن صدقي لا يكف عن ضرب شقيقاته، وحتى أمه، لكنها لم تصدق، كانت تنفي هذا وتبرره لنفسها وتقول إنه مهذب وخلوق ومحترم ومثقف وغير معقول أن يقدم على ضرب شقيقاته وأمه وهو المثقف المتعلم بالإضافة إلى أن أصدقاءه الشبان الآخرين

كانوا من خيرة الشباب وأكثرهم انطلاقة فكرية وأدباً وأخلاقاً وعلماً فغير معقول أن يكون صدقي متوحشاً لدرجة أنه يضرب شقيقاته وأمه بالعصا، كما كانت تقول النسوة في الحارة...

فكرت بصدقي كثيراً، كيف ستتعرف عليه، وكيف ستجعله يشعر بوجودها ويحبها ويلمس حنانها، إنها مشكلة حقيقية، كيف ستحل هذا اللغز المحير وممن ستطلب المساعدة، إن طلب المساعدة أمر مستحيل وغير معقول، لأن أية رفيقة لها تشعر بهذا الحب قد تخطفه منها، لذلك قررت أن تحل المشكلة لوحدها وبدأت تراقبه وتتحين خروجه من البيت لتلتقي به، وحدث ما تمنت بعد عناء وانتظار وتعب، لقد تصادفت معه في الشارع وبمجرد أن رأته تجمد الدم في عروقها بل صعد إلى رأسها ثم عاد وانخفض إلى أخمص قدميها ثم تجمد مع تجمد نظرات عينيها في عينيه — التقت عيناهما، وحلقت بهما وغابت عن الدنيا وطارت في السماء وبحثت عن غصن شجرة تستند عليه لأنها أحست بأن قدميها ستخونانها إن لم تتماسك أكثر، واستيقظت لتجد صدقي محدقاً بها ولتلحظ توسع حدقتي عينيه،

لتلحظ أن عينيه واسعتان وسع السماء بل هما السماء وهما الأرض، هما الجنة وهما النار هما كل شيء.

واستدركت داليا وأبعدت نظرها لثوان عن صدقي ثم عادت ونظرت إليه لكن نظرتها هذه ليست كتلك، بل أحست بالخجل ودبت الرعشة في أوصالها، فابتعدت من أمامه راكضة إلى بيتها، لتدخل إلى غرفة نومها وتندس في سريرها لتتلذذ بتلك النار التي اشتعلت في جوفها، لتتلذذ بذكرى تلك النظرة الغالية، لتعيش لتلك النظرة، إلى أن يأتي ما بعدها، ومرت أيام عدة وهي ما تزال تعيش في سحر تلك اللحظة، في جمال تلك النظرة في رونق تلك النظرة الحارقة التي منحها إياها القدر، لقد أحبته من أعماقها، وانتظرت سؤاله عنها، لكن الأيام مرت مسرعة وتلتها أشهر ثم سنة ولم تعد تلمح ذلك الملاك الذي أشعل النار في قلبها البريء الصافي الصادق وبدأت هي بالبحث عنه أين ستجده، كيف ستحصل على نظرة أخرى لتعيش عليها أيام أخرى، إن مفعول النظرة الأولى بدأ يخف لذا يجب أن تلحقها بثانية، لكن أين ستراه، وكيف، ومن غير المعقول أن تمر الأيام هكذا، دون كلمة أو خبر يطمئن قلبها المسكين، ومرّ

عام آخر، وهي تعيش على نار تلك النظرة التي أصبحت كالسوسة التي تنخر في العظام، لكن هذا الألم لم يفقدها الأمل بل كانت دائماً تسأل إلى أين ذهب هذا (الصدقي) إلى أن أتى ذلك اليوم الجميل وهي في طريقها إلى مدرستها،... كان عائداً من سفر، وهو كثير السفر بحكم عمله. رأته وهو يهبط من سيارة أجرة، كانت قريبة جداً من السيارة، انتابها إحساس بأنها ملتصقة بها، رأته وهو يدب بقدميه الرائعتين على الرصيف، وقف، ونظر إلى يمينه ليجدها واقفة متجمدة، محمرة الوجه دامعة، حدقت بعينيه، جيداً ، وهو أيضاً وقف جامداً، لم يبدِ أي حركة، أو ينطق بأية كلمة، كان جامداً، وكانت جامدة وتعانقت العيون على مرأى من الناس جميعاً نبضت بالفرح والسعادة والأمل بدت وكأنها أنهار متدفقة، غزيرة، مليئة بالحب والشوق والعطف والشفقة والحنان، ونبض القلب وازدادت دقاته وتسارعت خفقاته كادت تخرج من موطنها من مكمنها من أعماقها وتحرك المنبه فأدركت أن الوقت قد حان لكن الخجل عاودها مرة أخرى وانصرفت من أمامه مسرعة واقتحمت غرفتها وألقت بنفسها على السرير لتندس به كي لا

يلمح أحد تلك النار التي تأكلها، المشتعلة في أعماقها، كي لا يلحظ أحد تأثير نظراته عليها، كي لا يلحظ أحد بقاياه في عينيها. وندمت لأنها لم تكلمه وأنبّت ضميرها ونفسها ولعنت خجلها قائلة في تذمر:

في المرة القادمة سأكلمه مهما كان الثمن، لكن لماذا لم يتكلم هو، لماذا لم يبتسم لي، لماذا لم يسألنِ من أنا وماذا أريد؟ ربما هو يعرف كل شيء عني وإلا لما حدّق في بياض عيني وسوادهما.

وعاشت لتلك النظرة أياماً أخرى وتحرقت بنار تلك العيون أشهراً أخرى وتلذذت بذلك العذاب سنة ثالثة وتلتها سنة رابعة، أربع سنوات تعيش على نظرتين، نظرة من أرض الوطن وأخرى من سمائه، نظرة مختلطة بتراب غالٍ وممزوجة بدم القلب وعطر الروح وشذا النفس، أربع سنوات، علمت عنه كل شيء إلا ساعات خروجه ودخوله، ساعات ذهابه وإيابه، وكم كانت تخشى ألا يعود، لأن الأشياء الغالية عندما تذهب قد لا تعود، أربع سنوات من القلق والترقب، عاش معها في كل لحظة وفي كل ثانية وفي كل رفّة جفن، كان لا يفارقها، عاش في

دمها واقترن بروحها وأصبح هو كل شيء في هذه الدنيا، كان حبيبها وكان صديقها وكان عمرها، وكان الوطن ولا أحد يدري، تجلس مع نظراته في كل يوم، تسترجع كل ثانية تسافر معه، وتأكل معه وتنام معه وتعيش معه حياة زوجة وأم وجدة، عاشت معه الحياة كلها بأولها وأوسطها وآخرها، عاشت معه حتى الموت وداهمها الشوق مرة أخرى، أين ستراه وكيف ستلقاه، كم هو مؤلم أن يبحث المرء عن وطن ولا يجده، كم مؤلم أن ينتظر المرء لحظة يعتقد فيها أنه وجد وطنه لكنه يفاجأ بأنه سراب، لكن قلبها حدّثها عنه، وكأن قلبه أرسل لها برقية يريد أن يراها، الوطن يبحث عن مواطنيه ألم آخر، فلتسرع يا قلب عساك تجد ملاذاً آمناً، وخرجت على حين غرة في ذلك المساء، ومشت من جانب بيته، وبحثت عنه بعينيها، تسمّرت في مكانها، عندما رأته خارجاً من البيت، وقفت أمامه ونظرت إلى عينيه، وبادلها هو النظرة مع ابتسامة خفيفة تبعثرت على أطراف شفتيه الرائعتين المكتنزتين، تمنت لو أنه يضمها لو تلقي برأسها على صدره، لو ترتمي بين ذراعيه واعداً إياها بالعيش معاً طوال العمر، وسافرت إليه متناسية واقعها وعادت لتفاجأ

بعينيها تعانق عينيه الجميلتين الواسعتين الرائعتين، وسيطرت عليها حالة من الحرج الشديد، واحتارت في أمرها وتلفتت يمنة ويسرة، ثم تركت العنان لأقدامها إلى حيث تعود في كل مرة، إلى غرفة نومها وسريرها، لتعيش ذكرى اللحظة الحلوة ولتخلص لها ولتعيش حياتها على هذه اللحظة الرائعة ولتحارب بها كل من يحاول ويجرؤ على طلب يدها من أبويها، ولتلعن كل من يبدي إعجابه بها وبجمالها وحسنها وفتنتها ولتبعد نفسها عن كل الأصدقاء ولتسجن نفسها في البيت إخلاصاً ومحبة له، إخلاصاً للحبيب الذي لم يكلمها ولا مرة واحدة للحبيب الذي لم يعبأ لأمرها، ومرت أيام وأشهر أخرى، وسنة وسنتان وثلاث، ولم تره، ولم تسمع عنه أي خبر، تكاد تموت وتمنت لو تموت، لأنها لو ماتت ستدفن في أحضانه سيضمها إلى صدره، سيحتويها كما يحتوي الجسد هذا القلب المعذب، حبيبها الغالي أين ذهب، أين سافر، إنها لا تجرؤ على السؤال عنه، لا تجرؤ على الحديث عنه، حاولت التعرف على أناسه والتقرب من أصدقائه وخلانه والعيش في أوطان أخرى،

عساها تسمع عنه خبراً، لم تشأ أن تعلن حبها و لم ترد لأحد أن يدري بقوة هذا الحب.

لكن لا فائدة، لا أحد يذكره، إلا فيما ندر، لا أحد يتحدث عنه وكأنه لا يعنيهم، كانوا يعيشون معه، لكنهم لا يذكرونه، لا يذكرون جماله وروعته، لا يتناولونه في أحاديثهم، سنوات طويلة، تعيش على ذكرى نظرة، عينيه الحبيبتين الغاليتين اللتين أصبحتا كل شيء في الحياة، كل شيء في الوجود، عينيه اللتين أصبحتا هما الحارة، وهما أولاد الحارة، وهما جمال الحارة، إنه الحبيب الجديد بالإخلاص والوفاء، إنها وفية له مدى العمر، آه يا حبيبي، وصاحت بأعلى صوتها، حبيبي اسمك المحفور في قلبي وفي روحي، سأتحدى به العالم بأسره وعاداها الأهل جميعاً، لماذا لا تتزوجين يا داليا... أما آن لك يا بنيتي... لكنها دائماً تجيب باللا... واللا... واللا وألف لا، لن تتزوج إلا منه، ستهبه نفسها رخيصة، لا... وألف لا، فعيناه لم تغب بعد، ما تزال تعيش على نظراته الرائعة الحنونة وتوسلت إلى الله وتمنت أن تلقاه وأكدت لنفسها بأنها ستتحدث معه عندما تراه وأجاب الله رجاءها ورأته في القهوة الشعبية الموجودة في رأس الحارة

حيث يتجمع بها رجالها وشبابها في كل أوقات النهار، وتسمّرت أمامه وصعد الدم إلى أعلى رأسها وانخفض إلى أخمص قدميها وحدق هو بعينيها وتسمر أمامها و لم تتمكن من الصمود أكثر أمام عظمته وعظمة عينيه، فانهزمت من أمامه كما في كل مرة وذهبت إلى خلوتها لتتمتع بجمال تلك اللحظة، لكن الألم هذه المرة كان له طعم آخر، فهي لم تلم نفسها لأنها لم تتكلم معه، بل لامته هو، لماذا لم يتحدث معها، لماذا لم يكلمها هو، لماذا، لماذا، أيعقل أن العظماء يبقون هكذا، فقط ينظرون لا يتكلمون والآخرون يتعبدون ويركعون كانت دائماً تقول:

عليه أن يبحث عني، عليه أن يكلمني، سأكلمه في المرة القادمة، لكن... أخشى على كرامتي أن تخدش.

وما أن انتهت من هذه العبارة حتى خرج صوتاً مدوياً من أعماقها صارخاً ليقول: لا مكان للكرامة هنا... إنه حبيبي.

عشر سنوات مرت وهي تقول يا حبيبي، سأكلمه في المرة القادمة، لكن الكرامة التي خافت أن تخدش كانت حائلاً بينها

وبين الحديث معه، كان جزءاً منها وكانت جزءاً منه، خافت أن تضيّعه فتضيع، لكنها رفضت أن قمدر كرامتها، لأنما لو هدرتما لتخلى عنها لأن كرامتها من كرامته وجوده يعني كرامتنا وفقدانه يعني الذل بكل أبعاده... كان الصراع مريراً وقاسياً، لماذا لم يكلمنِ هو، لماذا لا يبادر هو الحديث، لماذا لا يسأل هو، لماذا هذا الإهمال لها، أيجوز أن يهمل الوطن أبناءه، أيعقل أن يعيش المواطنون في وادٍ والوطن في واد آخر، وهما كلاً متكاملاً، لا تدعني أضيع أيها الوطن أيها الحبيب، يا مصدر الكرامة والإباء. عد، عد يا وطني، عد أيها الحبيب...

لم يغادر خيالها وحياتما وأيامها ولا لحظة، إنه الدنيا بما فيها، إنه جمال الحياة، يكفي أن يبقى على قيد الحياة حتى تكون الحياة جميلة، إنه أجمل ما في الوجود، إنه الوجود، كل الوجود.

وعاد الشوق مرة أخرى، وعادت النار تستعر في الجسد المسكين ليحرق فيه القلب الكبير، أيام تمر وتلتها أشهر، وحبه ينهش قلبها الرقيق، والزمن يلعب لعبته معها، فيغير لون شعرها، ويحفر بصماته على وجهها فيعمق أخاديده المتناثرة على حواف أنهارها وشواطئ بحورها ويثقل كاهلها بعماراته

وأبنيته بجسوره وحصونه بآلامه وهمومه وعذابه بحبه ببعده بقسوته.

كانت بنتاً صغيرة، أصبحت شابة، إنها في ريعان الصبا، في أحلى أيامها في الربيع الحلو الجميل، في الخامسة والعشرين ولا وقت لإضاعته، وفكرت جدياً في أن تكلمه، وكان الهاتف وسيلتها، وحدّثته، كان صوته رقيقاً ناعماً صافياً، حدثته وكأنها طوال عمرها تتحدث معه، كان الحديث ودياً بريئاً، خجلاً، مليئاً بالمزاح والطرائف، كان حديثه رائعاً، لم يقل لها شيئاً خاصاً، كان يحدثها بود وكأن حديثه هو استمرار لحديث سابق، وانتهى الحديث على الهاتف وأشبعت الهاتف تقبيلاً وندمت لأنها لم تحدثه من جيل مضى... واعتقدت بأنه كان ينتظر أن تبادر هي بالحديث، وهاهي الآن بادرت وحدثته، ولم يكن للكرامة موضع في حديثها معه، لأنه الحياة بطولها وعرضها، حدثته وسمعت صوته، هي الآن أسعد مخلوق على الأرض، وفي هذه الدنيا، عليها أن تنطلق وتعود إلى الحياة التي هجرتها، لأنه هو الحياة، وستعود إليه وستكثر من الحديث معه، ستعيش معه وله وستطلب موعداً لتلقاه، ستطلب من الوطن أن

يسمح لها برؤيته وأسرعت إلى الهاتف وطلبت منه أن يسمح لها برؤيته، وحلقت في الفضاء، فضاء هذا الوطن الرحب الواسع، غردت وطارت وأحست لأول مرة في الحياة بسعادة حقيقية، إنه الحبيب، إنه الدنيا بأسرها، السعادة، الفرح، كل شيء، فكيف لا تكون الفرحة عامرة، وكبيرة ولا تعوض، لكن لسوء الحظ هذه الفرحة لم تعمر طويلاً، ما بك تخذل أبناءك، ما بك أيها الوطن ترفض الأحباء الذين يضحون بأنفسهم، بأرواحهم في سبيل عزّتك ورفعة شأنك، ما بك أيها الوطن تدحض الغوالي الذين يمزجون ترابك بالدم، حباً وخشوعاً، ما بك تهزأ بالدموع التي تذرف خشية منك أيها الوطن، أيها الوطن، أهون القلوب عليك، أتقبل أن تطأ القلوب الدامية بأرجل قاسية، أتقبل أن تسحق القلوب تحت نعالك ليتناثر الدم من شرايينها وأوردتها، ما بك أيها الوطن تظلم محبيك وتُبكي مخلصيك وتزدري عشاقك، ما بك أيها الوطن تطرد من يلجأ للاحتماء بك، ما بك ترفض أن تضم أبناءك إلى أحضانك، ما بك تهون عليك الصبايا وتقبل بارتمائهن في أحضان الرذيلة، تلفظ من تطلب الاحتماء بحضنك، تلفظها وترميها بأحضان الضياع

والتيه والجنون، لم تفقد أبناءك وتدفعهم ليفقدوك فتضيع منهم ويضيعون منك ليصبحوا بلا وطن وأنت بلا أبناء ما بك تدفعنا إلى البكاء إلى الصراخ إلى الألم، لم يكن الأمر هيناً، عندما قرأت داليا على محض الصدفة إعلان في الجريدة الرسمية، إعلان خطوبة الشاب الأنيق صدقي هلال على الآنسة هالة هاشم، وكانت صدمة عنيفة، عانت منها الكثير ألم وعذاب، تيه وضياع، جنون وتخبط، نار حارقة تحرق كل عضو فيها وقلب يترف دماً، على حبيب العمر، على الوطن الغالي، قلب مسكين آمنت بدقاته ووثقت بخفقاته، قلب بريء، مُستهزأ به، وجرح، وكسر، قلب يترف دماً ليل نهار، من ذلك الوقت وإلى الآن والجرح لم يندمل ونزيف القلب لم يتوقف...

وتدفقت الدموع من عيني داليا وأخذت تحفر طريقها عبر وجنتيها الشامختين لتصل إلى حافة جبل تسقط بعدها في وادٍ سحيق.

* * *

- كان الخواجة سعيد صاحب المحل يراقب داليا على شاشة (المونيتور)، والدموع تسيل على خديها دون أن يهتز لها جفن، دموع تسيل من عيون جامدة لا روح فيها ولا حياة، دموع تنهمر بغزارة...

ابتسم الخواجة سعيد وقهقه، تهيأ له بأن من يرى هذه الدمية سيعتقد بأن هناك صنبور ماء خلفها، وُضِع في عيني الدمية، ليسيل الماء على اعتبار أنها دموع فيكون المنظر جميلاً وجذاباً، لكنه لم يمهلها، بل أشار بأصبعه إلى أحد مستخدميه بعد أن نظر إلى ساعته وقال لهم: اخرجوها...

* * *

أتى العمال وأخرجوها من الواجهة الزجاجية، نظر إليها الخواجة سعيد، وقال ضاحكاً محذراً:

- كان المشهد رائعاً اليوم، وآمل ألا يتكرر، فلا تسلم الجرة في كل مرة، انتهى دوامك، منذ أكثر من نصف ساعة، سنحاسبك عليها فيما بعد.

تلفتت داليا إلى يمينها ثم حدقت بالعامل الذي يحملها من الجهة اليسرى وقالت له: هيا يا ماهر.

ثم رمقت الخواجة سعيد بازدراء أثناء إدخالها إلى الداخل.

- أثارت هذه النظرة الخواجة سعيد، فما كان منه إلا أن رفع يده اليمنى ثم خفضها واستدار ثم اعتدل في وقفته وبعدها ربّت على كرشه، ثم صرخ وصاح على جهاد:

- جهاد... جهاد

- أسرع إليه جهاد، وقف أمامه بهدوء وقال بصوت رزين:

- نعم.

- هذه الصعلوكة، هذه الصعلوكة... لا أريدها هنا، أفهمت؟ لا أريدها.. لا أريدها.

يجيبه جهاد باتزان وهدوء:

- كيف لا تريدها، أهناك بديل لها، ثم ألا تعلم ما تخفي وراءها؟ ألا تعلم، كم يحميك وجودها، ثم من أين لك بمثل

هذا الجمال الفتان، ويقبل بمثل هذا العمل الشاق المضني. تمهّل، تمهل يا خواجة.

قالها جهاد باشمئزاز ثم استدار لينصرف، ولكن صوت الخواجة أوقفه:

- يا جهاد... أنت يا ولد...

وقف جهاد واستدار ثم نظر إلى الخواجة قائلاً: نعم ماذا تريد.

- أنت يا ولد كيف تتكلم معي بهذه اللهجة وبهذه الصيغة، ألا تعلم من أكون.

- أجل يا عمّاه... أعلم من تكون وأعلم أنك ولي نعمتي أنا وعائلتي وأخوتي وأعلم أيضاً أنك تعيل والدي العاجز المريض. أعلم يا عمي أعلم...

يتقدم الخواجة سعيد من جهاد ويضع يده على كتفه ثم يجذبه إليه ويتكلم معه بمودّة وهدوء:

- جهاد يا عمي، عليك أن تفكر، عليك أن تتعاون معي، لأن مصلحتنا واحدة، جهاد يا ولدي أنت بحاجة إلى كل قرش، بحاجة إلى تحسين أوضاعك كلها، وأوضاع أسرتك. جهاد فكّر

يا عمي فكّر، فكّر بوالدك، بأمك المسكينة التي لا تكف عن تصليح الملابس البالية، فكّر بأخواتك اللواتي لا ينتهين من صناعة أكياس الورق وعجين الخبز اليابس، فكر بنفسك، بمستقبلك، ألا تريد أن تتزوج وتنجب، ألا تريد أن يكون لك بيتاً يضم عائلتك في المستقبل، فكر يا بني، الفرصة لا تأتي إلا مرة واحدة في العمر، فكّر ولا تكن أحمقاً.

– نظر جهاد إلى وجه الخواجة سعيد ودقق النظر به، فلم يرَ إلا فماً يتحرك وعينان تطلقان شرراً مخيفاً فتركه يتكلم وابتعد عنه متجهاً إلى الغرفة التي تجهز بها داليا.

كان متألماً حزيناً، لم يصدق ما قاله الخواجة. سقطت دمعة من عينه لكنه لم يمهلها أن تنهي طريقها فمسحها بيده وهو يقول: أتريد يا عمي أن أبيع ضميري ووجداني أتريدني يا خواجة أن أتعامل مع المستتر والمجرمين ، أتريدني أن أبيع وطني وشرفي... لكن لا... لا... لا لن أقف أمام مغرياتك المبتذلة... لا... يا خواجة لا...حتى ولو مت جوعاً أنا وأسرتي سأبقى أقول لك لا... لا... حتى النهاية.

* * *

لم تذهب داليا إلى مسكنها بعد انتهاء دوامها، بل كان التجوال في الشوارع والجلوس في الحدائق وتأمل الناس وحياة أولاد الشارع، هو ما أقدمت عليه، فأمتعها وآنسها، وما أن حل الظلام حتى قررت الذهاب إلى مسكنها وسيراً على الأقدام. كانت تحاور نفسها، قليلة الكلام مع الآخرين، كانت هادئة صامتة.

كان الخواجة سعيد يحبها لالتزامها الصمت وعدم رغبتها في المناقشة، أما في الحقيقة فهي تحب الكلام الكثير وتحب الحديث كثيراً، وما كان صمتها وسكوتها إلا نوعاً من أنواع إعلان الثورة التي في داخلها.

- صمتها كان استنكاراً واستهجاناً للواقع المر الذي تعيشه.

- لماذا التحدث ولماذا الكلام، من الأفضل أن يلتزم المرء الصمت لأن لا أحد في هذه الحياة جدير بسماع صوتي، ولا أحد جدير بالتمتع بالنغمات التي تخرج من فمي. لماذا الكلام ولا فائدة منه، لماذا التحدث مع الآخرين ولن يجدي الحديث معهم نفعاً، أنا بالذات لماذا أتحدث، لماذا أتكلم، أنا أصلاً امرأة

من خزف، خزف خ، ز، ف، نعم هذه هي الحقيقة، الفصل شتاء والطقس في هذا الليل جميل ورائع ولطيف، الليل في بدايته وأهل الحارة أكيد مستيقظون، لكن هذا الهدوء مخيف، والشرفات تطلب من يقف عليها ويستمتع بهذه الليلة اللطيفة آه، لو أنني لست هنا، لو أنني هناك، لكن الحياة وظروفها وقساوتها هي التي قادتني إلى هنا.

كانت تسير في هدوء وبطء شديدين. كان صوت وقع أقدامها على الطريق خفيفاً منخفضاً، هي فقط من يحدث ضجة في هذا الشارع، لكن صوت وقع أقدام خلفها جعلها تنتبه، وتركز في سماعها، لكنها لم تسرع من خطاها، حافظت على مشيتها وقع تلك الأقدام يقترب، وبدأت تفكر في ذلك الصوت الصادر عنها. وقع الأقدام يقترب، كانت تحس بها كالمخرز ينغرس في أذنها.

- ربما تكون امرأة، لكن قد تكون أقدام رجل، بل على الأرجح إنها أقدام رجل فكرت أن تستدير وتنظر إلى ذلك الشخص الذي تقترب أقدامه منها، لكنها للحظة توقفت، لا يجوز أن ألتفت وأنظر...

وقع الأقدام أصبح خلفها تماماً، يجب أن أستدير وأنظر، قالتها لنفسها، ثم عاودت لا لن أستدير، السيدات المحترمات لا ينظرن خلفهن.

لكن شخص ما أصبح خلفها تماماً، سأنظر، لا لن أنظر، ربما...

وقبل أن تنهي كلمتها الأخيرة، وإذا بيدين خشنتين توضعان على عينيها من خلفها، توقعت للحظة أنها صديقتها سعاد التي تقطن في نفس الحي قالت برعب:

- من...

- اليدان أطبقتا على عينيها بوحشية، وأمسكتا برأسها في ذات اللحظة سمعت صراخ شاب يناديها باسمها:

- داليا... داليا... أنا قادم.

وبدأت بإطلاق صراخاتها ثم انهارت وسقطت على الأرض، لكن النذل كان قد فرّ هارباً من شدة صراخها فتبعه جهاد مطارداً لكنه لم يحظ به فعاد إلى حيث جلست داليا على

الأرض، خائفة مذهولة، مضعوقة، ليس من صاحب تلك اليدين بل من جهاد...

- ما الذي قاد جهاد إلى هنا...

تقدم منها ومسك يديها وأنهضها بلطف ورقة وحب ثم حدّق في عينيها وقال:

- لا تخافي أيتها الأميرة، لن أدعك وحيدة.

- إنها مذهولة، حاولت أن تتكلم لكنها تلعثمت، حاولت أن تنطق بحرف، أن تسأل جهاد، ما الذي أتى به إلى هنا، لم تستطع لكنه فهمها تماماً وأجابها على سؤال لم يسأل بعد:

- لا تسألي، قال لها: مهمتي في هذه الحياة هي حمايتك.

تنهدّت وقالت:

- وهل للخواجة سعيد علاقة بهذا؟

يصمت جهاد ويقول بصوت خافت حزين:

- لا لا تقلقي لا شأن له بذلك.

- لا تخافي أيتها الأميرة، لن أدعك وحيدة.

- إنها مذهولة، حاولت أن تتكلم لكنها تلعثمت، حاولت أن تنطق بحرف، أن تسأل جهاد، ما الذي أتى به إلى هنا، لم تستطع لكنه فهمها تماماً وأجابها على سؤال لم يسأل بعد:

- لا تسألي، قال لها: مهمتي في هذه الحياة هي حمايتك.

تنهدّت وقالت:

- وهل للخواجة سعيد علاقة بهذا؟

يصمت جهاد ويقول بصوت خافت حزين:

- لا لا تقلقي لا شأن له بذلك.

أحسّ جهاد بألم يعتصر قلبه، إنه يكذب، لكن لا بديل له عن الكذب في هذه اللحظة، لا يريد أن يسبب لها قلقاً، اقترب منها وربّت على كتفها وقال:

- هيا اذهبي... وادخلي إلى غرفتك، هيا، هيا...

- سأدخل سأدخل قالتها داليا بعصبية ثم تابعت:

- لكن لِمَ أنت هنا، من أرسلك لتتبعني؟!..

- لا أحد.

- لِمَ تتبعني؟

- لأحميك.

- ممن؟

- من أي شيء.

- مثل ماذا؟

- لا شيء محدد.

- هل أنا في خطر؟

- أكيد لا...

- إذن لماذا أنت هنا؟

- لأنني... يقولها ويصمت وتصمت داليا وتنظر إليه وينظر إليها ويغيبان للحظة عن الوعي، ثم تستدرك داليا وتقول:

- لأنك ماذا... تكلم؟

- لأنني أحبك...

وتدمع عينا جهاد ويشيح بوجهه عنها ويصمت ثم يرفع كفيه ويمسح وجهه ويطلق زفرة حارقة ثم يعود ليستدير وينظر إليها فتبادره بابتسامة رقيقة:

- تحبني، تحبني يا جهاد.

- كثيراً.

- ألهذا تتبعني.

- نعم ولنفس السبب لا أكف عن اللحاق بك إلى أي مكان تذهبين إليه، كما أنني دائم...

تقاطعه داليا مبتسمة:

- دائم المراقبة لي محل الخواجة سعيد، عمك... أليس كذلك.

- نعم.

- ولماذا لم تقل لي أن الخواجة سعيد هو عمك؟

- نعم عمي... إنه عمي... كوني مطمئنة...

تصمت داليا للحظة وكأنها تخفي شيئاً ما، ثم تنظر إلى جهاد وتقول:

- أشكرك على كل شيء، لكن لا أحب أن تتبعني مرة أخرى أو أن تضعني أمام (تلسكوبك).

- إنني أحميك.

- وأنا قادرة على حماية نفسي، أستأذنك.

واستدارت داليا، وتابعت طريقها، كانت الدموع مريرة وحارقة في عينيها الجميلتين الواسعتين. كانت تبكي، لكنها حاولت جاهدة منع الدموع من التساقط، حزَّ في نفسها سقوط كل شيء، كل شيء يسقط أو في طريقه إلى السقوط، لكن، ليس في اليد حيلة، ولا مفر ولا قدرة لها لتمنع أو لتقف سداً حائلاً في وجه سقوط ما يسقط، لكن دمعاتها تحت السيطرة، وتستطيع أن تمنعها، لن تسقط دمعة بعد اليوم، لن يكون هناك معنى للسقوط في قاموسها ستتحدى عينيها، ستتحدى دمعتها وستنتصر حتى وإن اضطرها الأمر على تجفيف منبع دموعها، وستعمل جاهدة على ردم هذا النهر المتدفق من أعماقها، كي

لا يكون هناك مصدر للسقوط. لن تكون هناك دمعة، وبالتالي لن يكون هناك سقوط.

وتابعت طريقها، لكن بخطى سريعة وقلب متألم ومجروح. ومشت على طريق اعتقدت لوهلة.. أنه معبّد.

كانت المنازل المتراصة على جانبي الشارع تبدو كأنها خاوية، لا مكان فيها ولا حياة بادية عليها، وكانت هذه البيوت وكأنها أكوام من الحجارة المتراصفة كم تمنت أن يكون لها أحدها، كم حلمت أن تسكن في إحداها، كم كانت تدقق النظر في النوافذ المفتوحة وتقف للحظات لترى شكل الثريات المتدلية من الأسقف وخزائن المطبخ الفاخرة التي لا يعرف من أين مصدر أساسها.

- كانت البيوت خاوية، كانت وكأنها ليست منازل لبشر. استهجنت داليا لماذا كانت تتألم عندما ترى الناس جالسين في المساء على الشرفات وفوجئت بنفسها لما تمنت أن تكون من إحدى السيدات اللواتي يطللن من النوافذ الفاخرة على ذلك الشارع الذي تجتازه في كل يوم.

أحست أنها وحيدة في هذا العالم الجامد، تذكرت للحظة ذلك الأمير، وتساءلت في سرّها: أين هو، أين هو، لو أنه يراني، لو أنه يحس بي لكان الوضع أفضل قد أكون معه سيدة حقيقية ، قد أكون امرأة من لحم ودم، قد أكون سعيدة، وأكيد حينها لن أضطر لأن أكون موضع حماية من أحد.

حينها سأحدثه عن كل ما يجول في ذهني، سأبوح له عن كل ما في قلبي، سألقي برأسي بين يديه وعلى صدره، ثم أبكي، إلى أن أغسل روحي ونفسي وأعود كما كنت أو كما أنا امرأة حقيقية، امرأة من لحم ودم، امرأة تحس وتشعر تحب وتكره، امرأة حزينة متألمة، يجب أن أرى أميري قبل أن أُكْسَر، فأنا امرأة خزفية، والخزف قابل للكسر.

ولم تدرك بنفسها إلا وهي تضع المفتاح في قفل بابها، فتحت الباب ببطء وأغلقته خلفها ثم قفلته وتأكدت مرات عديدة أنه مغلق بشكل محكم، ثم ألقت نظرة غريبة على غرفتها، تفحصتها جيداً، وابتسمت وارتمت فوق السرير وقضت ليلتها كأغرب ما يمكن، ثم استسلمت أخيراً للنوم.

وغادر جهاد الحارة بعد أن اطمأن على داليا، لكنه قرر ألاّ يتركها لوحدها أبداً، كما أنه لن يتهاون مع الخواجة سعيد إن كان له علاقة فيما حصل في هذه الليلة لأن الخواجة سعيد ليس داهية وحسب، بل إنه العدو اللدود للمجتمع، لذا سيكرس كل قواه لمقاومته وحماية داليا، حتى ولو كلفه هذا الأمر حياته كلها.

* * *

كان جهاد على علم بالموعد المحدد بين الخواجة سعيد والمستر ديفيد وجماعته.

لذا قرر أن يبذل قصارى جهده لحضور هذا الاجتماع السري، كان يعرف ما يدور بين الخواجة والمستر والعلاقة التي تربط بينهما، لكن الشيء الذي لم يكن على علم به هو أطراف هذه العلاقة، الأذرع التي تمتد منها، إلى أين تصل ومن تصيب. كان يعلم أن المستر يمول الخواجة، والخواجة ينفذ الأوامر والتوجيهات، حاول جهاد مراراً الإطلاع على بعض منها، لكن السرية المطلقة والحرص الشديد الذي كان يبديه الخواجة

عليها، جعل جهاد يصرُّ ويلحُّ على البحث والمعرفة والمتابعة. وفكر جهاد بطريقة لإبطال بعض هذه الخطط ومنها خطة حقيرة ضحيتها المسكينة داليا.

* * *

خرجت داليا من بيتها في صبيحة اليوم التالي ورأسها مثقل بالهموم والآلام والأحزان، مع أنها كانت قد قررت في ليلة أمس ألا تستسلم للوساوس التي تنخر رأسها وأن تبقى قوية تقاوم وتقاوم إلى ما شاء الله، لذا كانت تحاول أن تغسل دماغها ونفسها قبل وصولها إلى المحل، كانت تمشي بخطى وئيدة ثقيلة، خافضة الرأس متدلية الكتفين وإحدى يديها مدسوسة في جيب بنطالها الجينز اليتيم وللحظة رفعت رأسها إلى السماء وقالت: ربي ارحم والدي الحبيبين، لم أعد أريد شيئاً سوى الإحساس بقيمتي كإنسانة، إن الخواجة العدو يحط من قدري، ويزيد من شقائي، ويقلل من إنسانيتي ولا بد لي من العمل، ولا بد منه، آه كم تغيرت الحياة وكم تبدلت في كل لحظة تتغير من لحظة فقداني لأمي وأبي، إنهما لم يسعدا بصباي، ولم يتمتعا بشبابي، كانت والدتي تقول دائماً:

كم أنا بشوق لأرى داليا شابة، صبية، رائعة الجمال، فيجيب والدي: لا تستعجلي السنوات يا امرأة تمتعي بها في صغرها قبل أن يأتي ذلك الفارس ويخطفها منك.

فتجيب الوالدة العصبية: ماذا تقصد يا رجل، هل سنفقد داليا عندما تصبح شابة، لا... لا... هذا لن يحصل أبداً، وإذا حصل ستتزوج داليا وتبقى معنا في البيت هنا... لا تبرحنا ولا لحظة، ثم إنها ستعتني بنا عندما نشيخ وعندما تقسو علينا الحياة.

تتنهد داليا وتقول متحسرة، وبصوت متهدّج: آه يا والديَ، لقد رحلتما قبل أن تقسو الحياة عليكما، فقست عليّ وعاملتني كأسوأ ما يمكن أن تكون المعاملة.

وصلت داليا إلى المحل واستبدلت وجهها بآخر بعد أن ارتدت قناعاً من البهجة والفرح والمرح. ألقت السلام على الخواجة سعيد بطريقة فيها الكثير من الدعابة لدرجة أن الخواجة استهجن سر هذا المرح.

- صباح الخير يا خواجة سعيد، سعيد صباحك ونهارك يا سعيد يا خواجة سعيد سعيد يا سغيد، الزيك يا سعيد.

– أهلين يا آنسة داليا، أراك اليوم على غير عادتك، مرحة، فرحة، بشوشة.

– نعم يا سعيد بيك، الحمد لله، اضحك وامرح يا رجل، ما نفع هذه الحياة.

– من زمان وأنا أقول لك هذه يا آنسة داليا.

– نعم يا سعيد بيك، واليوم فقط أحسست بقيمة كلامك.

يقطب الخواجة سعيد حاجبيه ويزم شفتيه ويضع غليونه في فمه ليأخذ نفساً طويلاً ثم يطلق الدخان متجهاً نحو داليا ببطء وفي عينيه شر يتقد:

– هم هم، هكذا إذن يا آنسة داليا، اليوم فقط أدركت قيمة كلامي، اليوم فقط علمت بأن لكلامي معنى، إذن أنا أتكلم بدون معنى، أنا لا أعرف ماذا أقول، أنا أتحدث لمجرد الحديث هكذا إذن، وهكذا تظنين بي.

حاولت داليا أن تفهمه إلى ما رمت إليه، لكنه لم يفسح لها فرصة للحديث، بل أمرها بالاستعداد للعمل فوراً ودون نقاش.

* * *

- كان السيد ديفيد قد وصل إلى المحل وبرفقته صاحباه، فتح الباب ودخل واتجه نحو الخواجة سعيد وتبعه مرافقيَه كان الخواجة سعيد ما يزال واقفاً في مكانه حيث كان يتحدث مع داليا.

تقدم منه المستر ديفيد وقال بلهجة حادة، وهو يتابع طريقه إلى الداخل:

- هيا اتبعني.

هرول خلفه الخواجة سعيد متمتماً: خير يا سيدي ماذا هناك...

وصل السيد إلى جانب باب غرفة الاجتماعات فتحه وتبعه من معه ثم الخواجة سعيد. جلس السيد على كرسي في صدر الطاولة وإلى جانبيه مرافقيَه وفي الطرف المقابل له جلس الخواجة.

نظر المستر إلى اليمين ثم إلى اليسار حيث يجلس مرافقيَه ثم إلى الخواجة، وقال:

- اسمع يا خواجة الزعيم يحذرك للمرة الثانية وأنت تعلم ماذا يعني هذا. تعلم أن حياتك قد تكون الثمن.

- أستغفر الله العظيم يا مستر ما الذي حصل؟!.

- غباؤك يا خواجة، غباؤك المستفحل سيعرضنا للخطر، للمرة المليون أقول لك استخدم امرأة في تنفيذ الأوامر.

- لم أجد المرأة المناسبة لذلك.

- ألم أقل لك إن غباءك سيعرضك للخطر، ثم إن تلك الفتاة التي تدعى داليا ألا تستطيع؟!...

- لا تصلح يا مستر.

- حاول.

- حاولت وفشلت.

- كرر المحاولة.

- سأحاول.

– اسمع الأمر المستعجل الذي قدمت من أجله، هناك ثمان فتيات عليك استقبالهن مثنى وفرادى، أربع من أوديسة واثنتان بولونيات وواحدة من سالونيك والأخيرة سلوفاكية. ولكي تزيل العار الذي لحق بك عند الزعيم ما عليك إلا أن تختار الشباب من أبناء الذوات،أبناء الحسب والنسب وأصحاب الوجاهة وخاصة أبناء الـــ... مفهوم.

– مفهوم يا مستر.

– ثم إنهن ملكات في الجمال والغنج والدلال.

* * *

بدأت داليا يومها مرتدية قناع البشاشة رغم كلام الخواجة سعيد المزعج، ورغم الألم والحزن الذي ينهش أحشاءها، لم تنسَ أن تردد العبارة ذاتها التي ترددها كل يوم في مثل هذا الوقت ساعتين في الصباح ومثليهما مساء في المحل والعمل عارضة أزياء ثابتة دمية تعرض عليها الملابس في واجهة محل يا سلام يا سلام.

وخلال هاتين الساعتين تستطيع داليا أن تأخذ استراحة إذا شاءت مدتها عشر دقائق، لكنها في أغلب الأحيان لم تكن بحاجة إلى هذه الاستراحة فقد تمرست جيداً لهذا العمل وألفته وأحبته، ربما لأنه يمنحها فرصة للتأمل والبعد عن الناس، تتأملهم وهي قريبة منهم، أما هم فبعيدون جداً. فرصة تخلد فيها للتفكير، ففي هاتين الساعتين لن تتمكن من الحديث أو التحدث مع أحد، إلا مع نفسها ومع الله.

-شيء جميل أن تسنح لك فرصة للتأمل، تأمل كل شيء: الشارع، الإنسان، السماء، الحيوانات، الأشجار، الورود، الملابس، الأزياء. أن تتأمل كل شيء، تتأمل ذاتك، روحك، نفسك، تتأمل الله في أعماقك والأموات في مخيلتك، تتأمل جسدك.

في البيت لديك الوقت الكافي لتتأمل كما يحلو لك، لكنك هنا في هذه الغرفة الزجاجية تتأمل أكثر وتكون أكثر صدقاً مع نفسك، مع روحك، في بيتك الوقت ملك لك، ولك الحرية في أن تتأمل أو لا تتأمل، في بيتك أنت حر، لكنك هنا مقيد، الوقت ليس لك، وأنت لست لك، لست ملك نفسك، أنت

هنا ملك آخرين، هنا في هذه الغرفة الزجاجية، أنت شيء آخر تماماً ، شيء يتيح لك التفكير فيما لو كنت فعلاً هذا الشيء الآخر، الجامد، فكم سيكون الأمر جميلاً، أن تجد نفسك غير هذا الشيء أو أنك حقيقة، حقيقة، تتوصل الحالة بك إلى درجة تظن بها أن كل الدمى والألعاب قد تكون حقيقة في لحظة ما.

وكيف ستكون الحالة لو أصبحت كل الدمى حقيقة، أو لو كانت فعلاً حقيقة أو كل البشر دمى، قد يكون البشر دمى متحركة، دمى دائمة وأنا دمية مؤقتة.

استيقظت داليا من شرودها الطويل على صوت ناعمٍ لامرأة أنيقة ترتدي فستاناً حريراً أحمر يكشف عن جزء كبير من صدرها الأبيض وذراعيها الغضتين ويبرز تدويرة خصرها النحيل مع قوامها الطويل الرشيق، امرأة رائعة قالتها داليا، امرأة بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى، وبرفقتها رجل أنيق طويل القامة يرتدي طقماً أسود أنيقاً جذاباً مع قميص أبيض و «بيبونة» حمراء من الحرير الطبيعي.

ودققت داليا النظر بهذه المرأة الفائقة الجمال ذات الوجه الأبيض والشعر الأصفر والعيون الخضراء احتارت داليا بأمرها والمرأة أعجبت بتلك الدمية الجميلة التي أضفت جمالاً ورونقاً لذلك الفستان الحريري الأبيض الذي يعرض عليها . نظرت السيدة الأنيقة إلى زوجها وقالت بصوت هادئ رزين:

- أأعجبك هذا الرداء الحريري؟!.

- لا، إن ما أعجبني هو هذه الدمية.

ـــ رائعة، رائعة جداً.

- تبدو كما لو أنها حقيقة.

- ما رأيك أن نشتريها ونضعها في الصالون.

- ممكن، لكن تعتقدين أن يبيعنا إياها صاحب المحل.

- ندفع له ما يريد.

- إذا كان الأمر هكذا، لا مانع لدي.

تلقت داليا كلام هذين الزوجين الغريبين بغرابة شديدة، وبدت كالمصعوقة تارة تحاول كتم ضحكة ساخرة ستخرج من فمها

عنوة وتارة أخرى ينتابها إحساس بالأسى فتحاول حبس دمعة ستخرج مرغمة من عينيها الصافيتين.

- دخل الزوجان المحل وبحثا عن صاحبه، وبدأت المفاوضات حول سعر الدمية. للمرة الأولى تتلفت داليا حولها في سجنها الزجاجي، وكأن أحد ما أخبرها بان الخواجة سعيد لا يراقبها الآن.

كانت تتوقع بان الخواجة سعيد سيسخر من هذين الزوجين الغبيين، لكن شدّ ما أذهلها منظره وهو يحاورهما ويتفق معهما حول سعر دمية لا تقدر بثمن.

- حسناً... لكن يحبذ أن ننقلها نحن لكم إلى منزلكم.

تجيب السيدة بسعادة:

- لا بأس بذلك.

ويتابع زوجها:

- هكذا أفضل.

- لكن سيدتي الكريمة.. سيدي الكريم، دميتنا هذه بحاجة إلى صيانة دائمة.. هذه الصيانة تخولنا بأخذها من منزلكم في كل يوم مرتين وإعادتها لكم بعد ساعة أو ربما ساعتين، طبعاً لتبقى الدمية بوضعية جيدة، وليحافظ الخزف على أناقته ورونقه ولكي لا نثير الأقاويل، لذلك ستتابع ورشتنا أمور صيانة الدمية.

تُدهش الزوجة وتقول مستنكرة:

- أوه... لا يا سيدي أنا من سيقوم بصيانة الدمية.

يجيب الخواجة سعيد بقلق وتوتر واضحين وهو ينقل الغليون بين يديه تارة وبين يديه وفمه تارة أخرى.

- يا سيدتي هناك طريقة خاصة جداً للعناية بالخزف وصيانته، وأكيد لا يستطيع الفرد العادي أن...

تقاطعه السيدة بحدّة:

- اسمع يا خواجة قلت لك أنني لست بحاجة إلى من يحفظ أو يصون لي أشيائي.

يلتفت الزوج إلى زوجته ويقول لها مداعباً:

- يا حبيبتي لَمَ تتعبين نفسك أنت بالتنظيف، لست مضطرة لذلك أبداً، دعيه.. دعيه يرسل عماله لصيانتها، ما الفرق ما دمنا لن ندفع ثمناً لتلك الصيانة؟.

يبتهج الخواجة سعيد ويبتسم ابتسامة عريضة فيظهر الناب الذهبي المزروع في فكه العلوي ويقاطع الزوجين بحماس:

- طبعاً طبعاً يا سيدي فلستم مضطرون لدفع الثمن لأن أمور الصيانة والإصلاح من مهام الورشة الموجودة في المحل، هؤلاء يتقاضون مستحقاتهم كاملة من خزينة المحل ولا دخل للزبائن الكرام أمثالكم سيدي بهذا، ثم إن هناك أمراً آخر، ليحافظ الخزف على رونقه يجب أن يصان بأيدي أمينة ومتخصصة.

يهز الزوج الأنيق رأسه ويقول متمتماً وهو يراقب موجودات المحل:

- صحيح يا عزيزتي صحيح.

- أهكذا ترى، تجيبه الزوجة باهتمام.

- أجل.

- حسناً... فليكن، لكن سنأخذ الدمية مع الثوب.

قهقه الخواجة سعيد ونفخ غليونه واستدار إلى اليمين ثم إلى اليسار، ثم ترك غليونه في فمه وفرك كفيه بعضهما ببعض. ثم فتح ذراعيه مرحباً... ولو، ولو يا سيدتي، الثوب أولاً، والدمية ثانياً.

* * *

- كان السعر مناسباً، مناسباً تماماً... وأكثر من ذلك بل دُهِشَ الخواجة لموافقة تلك المرأة، وزوجها على دفع ما يريده من النقود، وأصرَّ بينه وبين نفسه على اعتبارهما غبيين.

اتفق الطرفان على موعد محدد، اختاره الخواجة، لنقل الدمية، كان الموعد مساء تلك الليلة الشتائية الحزينة الماطرة الباردة المثلجة.

ستنقل داليا الدمية إلى صالون فخم في قصر فخم جداً يقطنه هذان الزوجان الغريبان «العجيبان».

في البداية كانت الدهشة في أشدها، ثم تحولت إلى ألمٍ وحزنٍ عميقين:

- «أنا أباع» هكذا وبكل بساطة. قالت داليا لنفسها، عاد سوق النخاسين، عاد بصورة أبشع مما كان عليه، كانت النسوة تعرض والبائع يمتدح طولها وعرضها وشعرها وفمها وصوتها وقوتها، يمتدح حسنها وجمالها ليرتفع ثمنها. لكنها كانت تباع على اعتبار أنها امرأة، امرأة من لحم ودم، امرأة تأكل وتشرب، تنتقل، تأتي وتروح. وأنا امرأة حقيقية أباع على اعتبار أنني لست أنا، بل قطعة خزف، لا حس فيها ولا روح، دمية، دمية، لست حقيقة، أصبحت أخاف، أشك، هل يا ترى ما أراه من دمى هم بشر حقيقيون ابتيعوا على اعتبار أنهم دمى، هل الألعاب والعرائس التي لعبنا بها ونحن صغاراً ويلعبها أطفال اليوم هم أيضاً أطفال حقيقيون، بشر حقيقيون، عرائس حقيقية، ابتيعت لقاء ثمن رغيف خبز.. هل العروس التي لعبت بها في صغري وتلعبها أبناء وبنات الذوات هي عروس صغيرة طفلة حقيقية باعها أصحابها وتلاعب بها الأثرياء لقاء علبة دواء أو كوب شاي أو ماء... عليّ أن أتأكد من الدمى القديمة

المرمية على أرصفة شوارع الأحياء الراقية، هل هي دمى بلاستيكية أم دمى حقيقية، أنا خائفة.. خائفة.

كان بإمكاني أن أرفض، باستطاعتي أن أقول لا، لكن التهديد الذي تلقيته من الخواجة سعيد، أرعبني وأقلقني، قال لي: بأنه سيمتنع عن دفع أجار مسكني لهذا الشهر، والشهر في نهايته، أقنعني بأني سأحصل على نصيب من تلك العملية، سأحصل على جزء من النقود، يكفي لتأمين مستقبلي بشكل مقبول. يبيعني ويعطيني جزءاً من ثمني، جزء بسيط من ثمني يؤمن لي المستقبل بشكل مقبول، كم هو غالي الثمن، وما نفع المستقبل إذا ابتعت؟.

كانت عملية نصب واحتيال، ثارت ثائرة داليا، وللمرة الأولى تصرخ في وجه الخواجة وبقوة، كانت شجاعة:

- أنت نصاب يا خواجة، أنت محتال، كيف تبيع امرأة ونحن في القرن الواحد والعشرين، كيف تبيع امرأة ليست لك، صحيح أنا أعمل لديك لكنني لست ملكاً لك، و لم أكن هكذا إطلاقاً.

- قاطعها بحدة محاولاً إقناعها:

- يا غبية من يرفض مثل هذه الصفقة؟؟ يا غبية كيف ترفسين آلاف الدولارات تحت قدميك، يا طائشة أتاك الفرج والسعد وتقولين لا... كتر نزل عليك من السماء وترفضين، أنت مجنونة مجنونة. إذا كنت تريدين لأحوالك أن تتحسن ولحياتك أن تكون أفضل ولدموعك أن تجف عليك أن توافقي على هذه الصفقة.

- ولكنها نوع من النصب والاحتيال يا خواجة، سرقة أرواح، وتدمير حياة كاملة، إنها احتلال.

- نصب واحتيال لمن وممن، رجل وزوجته أعجبا بدمية معروضة في واجهة لعرض الملابس، وأرادا لهذه الدمية أن تكون في الصالون الفخم في القصر الذي يملكانه وأنت وافقت على ذلك لقاء مبلغ ضخم من المال، وهم وافقوا على دفع هذا المبلغ، فأين النصب وأين الاحتيال، في ذلك.

أنا رجل بسيط وهما من عرض عليّ هذا الأمر، ومن الجنون أن أرفض آلاف الدولارات مقابل أن توضعي في صالون فخم لمدة

ساعتين في المساء وساعتين في الصباح، وبعد عدة أيام ينكسر الخزف وتنتهي الحكاية. لا تُظهري الدهشة على وجهك، سنقول بأن الخزف تكسر أثناء التنظيف وكل شيء قابل للكسر وأنت دمية وستنكسر في يوم قريب.

تقاطعه داليا بحدة وغضب:

- ها أنت تقول يا خواجة إنني دمية، أنت تبيع دمية ولست أنا، أنا لا شأن لي بك ولا بدميتك، أنا إنسانة من لحم ودم وغير قابلة لا للبيع ولا للكسر، لا تكن قاسي القلب.

لكن الخواجة سعيد وعلى غير عادته مسك داليا من يدها برفق وحاول إقناعها واقتنعت أو أجبرت على اقتناع، كان لوضعها المادي التعس وحاجتها الكبيرة للمال أكبر الأثر في إقناعها.

واتفقت داليا مع الخواجة على أن تلتزم الصمت وتقنع الزوجين أنها دمية حقيقية.

وحان موعد نقل الدمية إلى الصالون الفخم، واستنفر فريق العمل عند الخواجة.

* * *

وارتدت داليا ثوباً جديداً ثقيلاً، تعجز الجبال عن حمله، ثوباً ليس من الحرير إنما من الخزف، كان هذا الثوب الخزفي يغطي كل جزء من أجزاء جسدها الغض الطري، بدت وكأنها دمية حقيقية، كالدمى التي يلعب بها الكبار، وللمرة الأولى تم اللقاء بين داليا وجسدها الجديد.

وفوجئت حتى العيون الساحرة تغيرت، وارتدت هي الأخرى ثوباً خزفياً فبدت لا روح فيها ولا حياة، دققت بجسدها وحاولت أن تتلمس جزءاً منه، فلم تتمكن لأن الخزف على أصابعها أشعرها بغرابة أجزائها عنها، وضع جذعها في أنبوب خزفي وأطرافها كذلك وكان الخزف على رقبتها وعلى رأسها، اعتقدت لوهلة أنها فعلاً دمية، حتى الناظرون إليها اعتقدوا لوهلة أنها دمية حقيقية، لم يتبادر إلى ذهن من ينظر إليها أن بداخل هذا الخزف يقبع جسد امرأة تسكنه روح حساسة ونفس شفافة وقلب مرهف. ونقلت الدمية إلى عربة موجودة بجانب محلات الخواجة.

كانت الساعة الثامنة مساء، وعدها الخواجة بأنه سيعود في العاشرة أو الحادية عشر ويأخذها بحجة تنظيفها وصيانتها ومن

ثم إعادتها في صباح اليوم التالي، اتفق معها على الهروب عندما يدخل الزوجان للنوم، أقنعها أنه باستطاعتها أن تخرج ليلاً من النهار، أن تخرج من المترل وسيستقبلها هو ورجاله خارجاً، أقنعها وأقنعها وألح في إقناعها، ثم بدأ بتحذيرها وشدد في التحذير، حذرها بألا تظهر البريق في عينيها، ألا تظهر الحياة في أعماقها.

علمها أن تكون دمية حقيقية، امرأة من خزف، أن تكون متعة للنظر، وعاء للأزهار في صالون فخم، حذرها وحذرها حتى ضاقت ذرعاً به وأصبحت دمية رغماً عنها، رغماً عن قلبها وروحها ونفسها.

* * *

نقلت الورشة الدمية إلى العنوان المدوّن لدى الخواجة سعيد، كانت الورشة امرأة وثلاثة رجال.

قام الرجال الثلاثة بعدة تمرينات أو كما كان يسميها الخواجة سعيد بروفات على طريقة حمل الدمية، ونقلها وتحريكها.

كان الزوجان بانتظار قدوم الورشة، ولم يطل انتظارهما فقد حضرت في الموعد المحدد تماماً.

كانت الدقة في موعد حضورهم من إكسسوارات اللعبة التي يلعبها الخواجة.

- ضعوها هنا... قالت السيدة المحترمة الأنيقة وأشارت بيدها إلى مكان في صدر الصالون الفخم.

- لكن سيدتي هنا يوجد أصيص ورد كبير الحجم، قالها أحد رجال الورشة الثلاثة.

- حمزة تعال إلى هنا وانقل هذا الأصيص وضعه هناك.

أتى حمزة وهو خادم مطيع يعمل لدى السيدة، وهو في العقد الخامس من عمره قصير القامة مربوع الجسم، أبيض الوجه منمشاً، أصفر الشعر، كان أبرصاً كما كانت تسميه السيدة الطباخة «الحاجة اعتدال» وكان أبرصاً فعلاً،كانا دائماً في حالة صدام وصراع، لم يتفقا أبداً من أول يوم عملا معاً في هذه الفيللا.

كلما نادته الحاجة اعتدال- يا أبرص- تثور ثائرته ويحمر وجهه وينتفض غاضباً- لست أبرصاً- لا تناديني بالأبرص يا عجوز.

- أنا عجوز يا أبرص، يبدو أنك لم تتعلم أبداً احترام السيدات، على كل حال أنت معذور، أنت مجرد خادم أبرص.

كانت الحاجة اعتدال «الطباخة» في الستين من عمرها، لكنها دائمة الأناقة والترتيب والنظافة، ويعتقد الناظر إليها أنها لم تتجاوز الخمسين من عمرها تعمل عند السيدة «شيرين» منذ أن كانت (شيري) صغيرة وهو الاسم الذي ينادونها به.

كانت الحاجة اعتدال تعمل في بيت عائلة شيري، وعندما تزوجت شيري أحضرتها معها، بحجة أنها طباخة ماهرة وشيري اعتادت على طبخها وهذا صحيح، لكن هناك سبب آخر هو أن شيري لم تدخل المطبخ في حياتها ولا مرة إلا للضرورة القصوى، ولا تعلم شيئاً لا في أمور المطبخ ولا في أمور الطبخ وكانت الدادة اعتدال هي من كان يقوم بكل ما يخص المطبخ.

وشيري تحب الدادا اعتدال لأن الدادا كما يقولون «مقطوعة من شجرة» وتربت في مترل والدها المعلم يوسف لذلك كانت

شيري تدلل الدادا وتحسن من معاملتها وتقدم لها كل ما تستطيع من حب واحترام وتقدير وعطاءات مادية أخرى كذلك الأمر كانت الدادا تحب شيري وكأنها ابنتها، لم تتكلف بمناداتها أبداً كبقية الخدم، لم تقل لها أبداً سيدتي أو ستي أو معلمتي، إنما كانت مناداتها الدائمة لها: عزيزتي شيري، حبيبتي شيري، ماما شيري...

– حبيبتي شيري، ما رأيك أن نضع الدمية هنا وأصيص الورد الكبير هناك وأشارت الدادا بيدها إلى زاوية في الصالون لوضع أصيص الورد فيها.

– أتقصدين يا دادا أن نضع الدمية هنا في مدخل الصالون؟

– نعم حبيبتي شيري، وهكذا يظن زائرنا بأن الدمية مادة يدها مرحبة به.

وقد يخطئون ويعتقدون أنها امرأة حقيقية.

شهقت شيري فرحة:

ـــ أوه... حسناً دادا... صحيح، هيه أنتم «وتشير بيدها إلى رجال الورشة تعالوا إلى هنا ضعوا الدمية هنا في مدخل الصالون وأنت يا حمزة أعد أصيص الورد الكبير إلى مكانه في تلك الزاوية.

ونفذ كل واحد ما أُمر به».

- حسناً هكذا جيد.

وقفت شيري بقامتها الممشوقة ووضعت يديها على خصرها مبتهجة فرحة واتجهت نحو غرفة إلى يمين البهو الفسيح وصرخت:

- حليم... حليم... حليم، حبيبي، حبيبي تعال.

يخرج حليم من تلك الغرفة وهو يرتدي (روب ديشمبر) أزرقاً أنيقاً وينتعل شحاطة من الفرو الأزرق وبيده سيكار وتدلت من عنقه نظارة مربوطة بسلسلة ذهبية استقرت على صدره العريض.

وقف حليم بمنتصف الصالون، مكتوف اليدين، هازّاً رأسه، قال وهو يبتسم:

- نعم ماذا هناك.

- ما رأيك يا حبيبي بموقع الدمية هنا، أليس المكان رائعاً؟

- نعم، أصبح المكان رائعاً وجميلاً.

ونظر حليم إلى الدمية.

كانت عيناها جامدتين، لم تشعر بالخوف ولا بالرهبة، كانت مذهولة، أفقدها الذهول بريق عينيها وحياة وجهها، لم ترَ في حياتها كلها بشراً كهؤلاء ولا بهواً كهذا ولا امرأة مثلها.

حدق حليم بالدمية، كانت داليا تراقبه وتساءلت، لِمَ يحدق بي بهذا الشكل، لِمَ يبتسم، ماذا يريد، أسئلة كانت تطرحها داليا على نفسها وتبحث في أعماقها عن إجابات وعن مبررات لقلقها.

- أشعر بالقلق ربما لأني لست دمية، وأكيد السيد حليم وزوجته لم يلحظا أبداً أنني إنسانة، يجب أن أبقى متماسكة، أنا

لست قلقة، ولست متوترة وأعصابي هادئة، في منتهى الهدوء، في منتهى الطمأنينة، هادئة وأشعر برغبة في الغناء، أنا سأغني سأغني ترللا... ترللا... لا لا لا...

أنا إنسان... إنسان:... إنسان

إنسان الزاي... إنسان الزاي

قلبي... ملك لك.

((أفو – مون – كور– أفو))

((مون كور... أفو))

– رائعة إنها رائعة يا عزيزتي شيري: يقول حليم بعد أن يدور دورتين حول الدمية.

– نعم.

يتابع حليم مستهزئاً:

– يجب أن تكوني حريصة عليها خاصة يوم غد، فضيوف الغد ليسوا بالعدد القليل وربما تتعرض للصدم من أحدهم فتقع وتنكسر، كوني حريصة، مفهوم.

- لا تقلق حبيبي سأراقبها باستمرار وأمنع الضيوف من الاقتراب منها.

- أحسنت، أحسنت يا شيري، افعلي ما تشائين يا حبيبتي.

وعاد السيد حليم ليدخل الغرفة التي خرج منها.

نظرت شيري إلى رجال الورشة، وابتسمت لهم:

- شكراً لكم تستطيعون المغادرة.

أجابها جهاد بصوت يكاد يسمع

لكن...

وصمت، بل اختنق صوته، رفض أن يخرج من أعماقه، لأنه شريك في هذه الجريمة القذرة، كان باستطاعته أن يقول لا للخواجة لكنه قال ولم يجب الخواجة، كذلك داليا لم تبال به، ولم تستمع إليه، كانت تظنه مثل الخواجة، يريد أن ينهش منها ما يستطيع نهشه، لم تفهمه كما يجب، لم تثق به، لم تقتنع بحبه الكبير لها. اغرورقت عيناه بالدموع:

– حذاري أن يلمسها أحد. قال هذا وصمت، نظر إليه ماهر مستغرباً.

– جهاد لن نتأخر هيا.

تنبه جهاد لنفسه، استجمع قواه، تمالك نفسه، أخذ شهيقاً عميقاً وقال:

– حذاري أن يلمسها أحد، لأن الخزف قابل للكسر، ونحن وضعناها بطريقة معينة ودقيقة جداً، أي اهتزاز أو لمس قد يعرضها للكسر.

– ابتسمت السيدة شيري وقالت بهدوء:

– حسناً حسناً لا تخاف مع السلامة.

استدار الشباب الثلاثة وتقدموا خطوة نحو الباب، وبشكل فجائي وبلحظة واحدة يتوقف الثلاثة، ثم ينظرون نظرة واحدة إلى داليا، يهز الثلاثة وبآن واحد رؤوسهم ثم يبتسمون ابتسامة سخرية ويسرعون نحو الباب يفتحونه بيد واحدة ويخرجون بخطوة رجل واحد.

بعد خروجهم نادت شيري الدادا وأخذتها من يدها وتابعت سيرها وهي تقول:

- دادا يجب أن تكون الحفلة في يوم غد رائعة، بالنسبة للطعام عليك أن تهتمي به جيداً وأكيد لست بحاجة إلى توصية.

ودخلت شيري إلى المكان الذي دخل إليه زوجها.

وأما الدادا فقد دخلت إلى المطبخ وحمزة قام ببعض الترتيبات على الأثاث الفخم الموجود في ذلك البهو الفسيح، وداليا تلك الدمية الشفافة بقيت في مكانها، مذهولة وحيدة، كانت دهشتها كبيرة، ثم تحولت هذه الدهشة إلى حالة من التأمل، تأملت نفسها أولاً ثم تأملت الله في داخلها وتأملت البهو الفخم، الذي ظهر وكأنه قصر شهريار في ألف ليلة وليلة والتي أضيفت إليه هذه الليلة لتصبح الليلة الواحدة بعد الألف من ليال شهريار الغريبة الخيالية المجنونة.

الأرض مفروشة بالسجاد العجمي المزخرف والمزركش والتي تظهر في بعض الأماكن وكأنها الربيع بذاته، كان لون السجاد رائعاً، أنيقاً، في بعض البقع يغلب عليه اللون الزيتي الفاتح مع

البني الغامق وفي بعض البقع الأخرى منه وزعت جلود صوف الخروف ومدت فوق السجاد، أحدها كان أمام باب الدخول، أما أماكن الجلوس فقد وزعت في أربعة جهات، في الأولى وضع طقماً من الكراسي ذا لون زيتي مزركش رائع ومتناسب جداً مع لون السجاد الزيتي وأما الطقم الثاني للجلوس فكان يغلب عليه لون البني الفاتح جداً على اللون الزيتي وقد أظهر تناسبا كبيراً مع لون السجاد ولون الستائر والطقم السابق، لكن شد ما لفت نظر داليا هناك هناك في البعيد البعيد البعيد من البهو يوجد الطقم الثالث من الكراسي، تهيأ لداليا بأنها تحتاج لمسيرة قرن من الزمن لتصل إليه وفي أتعس الأحوال يحتاج لربع ساعة من ساعات هذا العصر، كان في تلك الزاوية البعيدة طقم غريب من الكراسي «الكنبات» ذا لون أبيض ناصع البياض فوق سجاد أبيض ناصع ويحيط به جلود صوف الخروف الأبيض الناصع وتوسطته طاولة من الخزف الأبيض الناصع وعلى الحائط بحر، بحر كبير عميق، واسع أزرق مليء بحيوانات وأشجار البحار المعروفة التي تعيش في أعماقها.

- يا الله الأسماك الكبيرة والصغيرة والحيوانات الملونة الرائعة، إنها غير معروفة حيوانات غريبة الأشكال وكأنها آتية من كوكب آخر لكن شدّ ما أدهشها هو تلك السفينة الضخمة التي تجوب عباب البحر من دون قبطان، سفينة من دون قبطان في بحر كبير واسع يضم بين جناحيه العالم كله، العالم الذي يشبه بغرابته البحر وحياة كائنات البحر، غريبة تلك الحياة، غريبة تلك التحف الموزعة على الطاولة الصغيرة المستديرة وفي المكتبات الخاصة بها، غريب شكل تلك الطاولات البلورية الموزعة في هذا الصالون التي تجاوز عددها العشرين باستثناء الطاولات الأكبر حجماً الموجودة في قسم السفرة أو غلى ما يبدو مطعم مصغر أو مقصف فخم، كانت طاولات وكراسي قسم السفرة أو «المطعم الناعم» غريبة الأشكال، الكراسي ذات الأرجل الرفيعة، الأنيقة المذهبة، تجعلك لوهلة تعتقد أن الرجل الذي سيجلس عليها سيكسرها ويقع على الأرض وقد تداخلت أرجله مع رأسه ويديه وربما يتحول إلى كتلة دائرية الشكل فتتحول مشيته إلى دحرجة بدلاً من المشي على اثنين كما هو حال البشر. لذلك قالت داليا أنا أرجح أن هذه

الكراسي للنظر فقط وليست للاستخدام، لأن من يفكر باستخدامها، أكيد لن يهنأ بتناول كوب شاي أو كوب عصير مع قطعة كيك صغيرة، وتساءلت كيف يستطيع المرء أن يجلس على كرسي قوائمه رفيعة بهذا الشكل ومع كل تميؤات داليا إلا أنها أكدت بأنها تستطيع الجلوس على تلك الكراسي الموجودة بجانب طاولة السفرة العامرة المليئة بكل ما لذ وطاب. وأكدت بأن الكرسي سيبقى على حاله وبكل ثقة قالت- لن ينكسر حتى ولو جلست عليه بقوة وستبقى قوائمه صلبة، ولن تنكسر أي قائمة من قوائمه الأربعة.

ثم خمّنت للحظة بأن تلك القوائم رفيعة وطويلة، لكنها قد تكون قاسية وصلبة وتستطيع تحمل الأطنان فوقها، فكيف يكسرها رجل يزن فقط وبدون أي شيء غرام واحد. إن هذه الكراسي كداليا تماماً، مطمع ثمين، وحلم جميل، وكلاهما يحمل الأثقال، حملت داليا الأرض كلها على كتفيها، حملت العالم بأسره على كاهلها وهي مثل هذه الكراسي تماماً، رفيعة القوائم مذهبة الأطراف، يظن الناظر إليها بأنها لن تستطيع رفع عود الثقاب من مكانه، ثم تابعت قد تكون تلك الكراسي ذات

القوائم الرفيعة المذهبة أقوى ما في هذا الصالون الفخم، أقسى من تلك الكراسي الخشبية الرائعة والضخمة التي تمكن الجالس عليها من النوم. إن سرير داليا كله لا يقارن بحجم كنبة من الكنبات الفخمة أو بالأصح، غرفتها التي تقطنها مع حمامها ومطبخها لا يساوي تلك المساحة التي وضع فيها ذلك الطقم الأبيض.

وتابعت تأملاتها في أثاث ذلك البهو الخيالي ولحمزة الذي دخل إلى غرفة زجاجية، صممت على شكل صاروخ قاعدته حافة البحر الأزرق وضغط حمزة على زر في داخل الغرفة فتغير لون البهو من الزيتي والبني الفاتح إلى اللون الأحمر، فدهشت وتساءلت كيف حصل ذلك. شيء مذهل حقاً، بومضة برق تغير كل شيء وتحولت الألوان في البهو الفسيح وأصبح لون الستائر أحمراً ولون السجاد أحمراً ولون الكراسي أحمراً، أحمراً قاتماً يذكر بلون دم قديم مخيف وتمنت لو يضغط هذا الخادم على زر آخر ليتحول هذا اللون المخيف إلى لون آخر أجمل، وفعلاً أخذت الألوان تتغير مرة أخرى، لقد أصبح الأحمر أقل حماراً والأبيض وردياً وحتى الثريات المتدلية من السقف أنارت

البهو الفسيح بلون أصفر برتقالي رائعاً، إنها كثيرة في البهو ومنتشرة فوق كل مكان للجلوس وأكدت لنفسها أن جميع الثريات من الذهب الخالص وحلمت بالجنة، وتراءى لها أنها تقف على طريق أخضر طويل ومعبد ثم انتابها إحساس بأنها تركض في هذا الطريق وتنتقل من كرسي إلى شجرة ومن شجرة إلى أخرى وهي ترتدي فستاناً أبيض، ناصع البياض، كفساتين العرائس، وتنتعل حذاء من الفرو الأبيض وتضع طوقاً من الألماس على رقبتها، وتركض وتركض إلى أن تصل إلى البحر الموجود في آخر البهو.

قفزت إليه فتلقتها عروس من عرائسه وحملتها على ظهرها ثم وضعتها على ظهر السفينة التي تجوب هذا البحر من دون قبطان وركضت على ظهر السفينة ورأت العالم من حولها، كان هذا العالم رائعاً، كان العالم هو الله، السماء والبحر ولا شيء آخر، الحياة، الله، الإنسان، الدنيا كلها فقط سماء وبحر سماء وبحر، إنها رائعة رائعة جداً الحياة.

واتجهت داليا إلى مكان جلوس قبطان السفينة أو كما يسمونه الكابتن وقادت السفينة وتذوقت جمال هذه اللحظة ومتعة أن

تكون هي القائد وهي تمخر عباب البحر، إنما القبطان، إنما الكابتن، إنما الآن تتحكم بمصير السفينة ستغير بها أشياء كثيرة، ستسير بها إلى بر الأمان، ستخرجها من هذا اليم ثم تعود إليه مرة أخرى لتتصارع مع حيتانه، وتتغلب عليهم، ثم تغوص في أعماق البحر وتخرج من عمق الأعماق لآلئاً وألماساً، تماماً كطقم الألماس الذي تضعه الآن على عنقها، ثم ستصطاد سمكاً كثيراً وتوزعه على جميع الناس في حيِّها البسيط، الذي هجرته من أكثر من قرن، من قرون طويلة، وتأمل أن تعود إليه، لتجد جديها المتوفين قد عادا إلى الحياة وتقدم لهما السمك الكثير، ثم توزع مع جديها الغاليين ، السمك على كل الناس باستثناء الخواجة سعيد الذي باعها ذات ليلة، باعها كما تباع الشاة، تباع ولا شأن له بها، باعها إلى دمى متحركة، باعها وهي ملك نفسها، لن تعطهِ شيئاً من السمك الذي ستصطاده من البحر ولا حتى حبة لؤلؤ واحدة من اللآلئ التي ستخرجها منه، وقررت أن تخرج لتوها من بطن البحر لتصعد إلى السفينة وتعود إلى الشاطئ، وتقود السفينة بأقصى سرعة ستتغلب على جبال الثلج، وعلى العواصف العاتية وعلى الأمواج الهائجة،

ستقود هذه السفينة إلى شاطئ الأمان رغماً عن الطبيعة ورغماً عن البحر ذاته، ستتحدى هذا البحر، ستتحدى هذا العالم العجيب، ستخرج من قمقمها، من ذاتها، ستنطلق لتقبل البحر على شفتيه ولتتزوج منه وتعانقه وينجبان سماءاً أخرى وأرضاً أخرى سماءاً أخرى وأرضاً أخرى ستنطلق ستنطلق ستنطلق وصرخت آه... تلفت حمزة يمنة ويسرة ونظر اتجاه الصوت، فلم يجد أحداً، نادى على الدادا اعتدال وسألها:

- هل ناديتيني يا ست اعتدال.

أجابت بصوت رفيع آتي من الداخل: لا... لا يا حمزة، لكنني صرخت لأنني جرحت إصبعي وأنا أقطع الطماطم، ودخل حمزة إلى المطبخ، واستيقظت داليا من غفوتها، جالت بنظرها، في المكان، بحثت عن أشياء تخصها، أشياء كانت معها من قبل، لم تفارقها ولا للحظة، لكنها لم تجد شيئاً، لم تجد إلا نفسها وروحها قد قُيِّدت، وأُطِّرت ووُضعت في قالب خزفي، في علبة زجاجية لا تستطيع فيها الروح حراكاً ولا النفس تمرداً وأطلقت الآه الأخرى، لكنها لم تخرج صوتاً يُسْمَع بل بقيت في أعماقها أنه تُحْرَق... آه ... آه ... آه ... أيها الأغنياء /١/

أيها الأغنياء إن غناكم شيَّدتهُ سواعِد الفقرا

القصورُ التي تقيمونَ فيها من بناها لكم سوى الفقرا

والطعام الذي تلذُّون من هُمُ صانعوه لكمْ سوى الفقرا

والرياحين في الجنائن مَنْ همُ غارسوها لكم سوى الفقرا

والحليبُ الذي رضِعتُم صغاراً كان مِنْ صَدْرِ معظم الفقرا

ساعَدوا الحرب والجرادَ علينا نحنُ نحيا بمعجزات السما

لا تقولوا: وساوِسٌ من فقير دَوَّختهُ طوارقُ الأرْزا

إن للفقْرِ ثورَةً لَوْ عَلِمتُم تَسْبَحُ الناسُ دونَها في الدّما

صدقت أيها الشاعر الفقير.

* * *

في مساء الليلة الأولى للدمية في هذا القصر وفي العاشرة تماماً رن جرس الباب، اتجهت الدادا اعتدال إلى الباب وفتحته، كان

شباب الورشة يتقدمهم جهاد بقامته المشوقة وابتسامته الصافية وشموخه الأخّاذ رمق الدادا اعتدال نظرة سريعة كانت كافية لسبر كل تفاصيلها من أسفل قدميها الصغيرتين الممتلئتين المدسوستين في حذاء جلدي أسود عريض من الجلد الطبيعي

/١/:القصيدة للشاعر

إلى الفستان المنزلي الذي ترتديه عادة المربيات في المنازل إلى رأسها المربوط بقطعة قماشية من اللون الأبيض المتناسب مع لون الفستان وحزام الوسط.

ابتسم جهاد وقال للدادا:

- مساء الخير.

- أهلاً.

- السيد موجود؟

- لا.

- والسيدة؟

أيضاً لا.

- حسناً نحن الورشة التي تعمل في محل الخواجة سعيد وعلينا نقل الدمية لصيانتها وحتماً سنعيدها صباح غد.

- لكن السيدين غير..

لم يمهلها جهاد حتى تتم جملتها قاطعها:

- لا يهم، كان اتفاقنا مع السيدين أن نأخذها مساء الليلة.

- لكن يا سيدي أ..

- سيدتي لو سمحت لا نريد لأحد الأطراف أن يخل بالاتفاق ويشير جهاد إلى شباب الورشة.

- هيا انقلوها.

- لكن يا سيدي.

وتحاول الدادا اعتدال أن تمد يدها إلى الدمية لكن يد جهاد كانت أسرع منها محاولاً منعها: سيدتي هذه الدمية لا تُلمس، إنها من خزف وليست من زجاج وسبق أن أعلمناكم أن اللمس ممنوع، اللمس ممنوع لو سمحت.

تقدم الجميع من الدمية، اقتربوا منها، كانوا رتلاً واحداً، خطاهم كانت نظامية متناسقة، تقدموا صفاً واحداً بخبطة رجل واحد وقدم واحدة، حركات أيديهم كانت أيضاً متناسقة، صوت وقع أقدامهم كان واحداً لأنهم ينتعلون الحذاء نفسه، كانت المسافة بينهم عند مدخل «الصالون» البهو وبين مكان الدمية ألف كيلومتر، بل ألفين، أو بالأصح ثلاثة آلاف من الكيلومترات كانت داليا بعيدة، بعيدة في عالم آخر في دنيا أخرى، وهم في عالم مختلف إنهم يتقدمون إليها، يقتربون منها، حاولت داليا أن تصرخ أو تطلق آه لكنها لم تستطع، كانت خائفة، كانت صغيرة كانت رقيقة، وهم كانوا أقوياء، كانوا عمالقة، كانوا إما شجعان أو قساة بلا قلب، هي كانت وهم كانوا.

ووصلوا إليها، وأحاطوا بها، تمهيداً لحملها ونقلها خارجاً، مدوا أيديهم، مدوها كانت أذرعهم قصيرة، أقصر مما يجب، لم تكن متناسبة أو منسجمة مع قاماتهم الطويلة وأجسادهم العملاقة، حاولوا أن يزيدوا من طول أذرعهم، ولكنهم لم يستطيعوا،

تقدموا أكثر ومدوا أيديهم وقبل أن تصل إليها ولن تصل صاح جهاد بصوته الجهوري: انتظروا.

استدار الشباب ونظروا إلى جهاد، حدقوا به، كانوا مذهولين، لم يتفوه أحدهم بكلمة، لكن نظراهم كانت تقول: ماذا هناك؟

- لا شيء يا شباب، إنما أريد معاينة الدمية قبل نقلها، لربما.. ربما.. ويصمت، حاول أن ينطق، أن يتابع ما يود قوله، لكن لسانه خانه، قدرته على الكلام خانته، اتضح أنه لن يستطيع الكلام، أو إنه لا يملك تلك القدرة المعتقدة.

تقدم من الدمية، وقف متواجهاً معها، وغاص في ذلك البحر العميق البحر الأزرق الصافي، الذي طالما أحبه، وأحب السباحة فيه، وأتقنها تماماً، وأصبح لفترة وجيزة السباح الماهر الوحيد الذي لا يخشى من قناديله، حاول جهاد أن يتلفظ بكلمة، بحرف، لكن شيئاً ما منعه من الحديث، شيئاً ما جعله يعتقد أن الكلام انتهى، شيء ما أخافه، أرعبه، حتى تراءى له أن البحر جف، لا ماء فيه ولا حياة، شيء رهيب، يكاد قلبه يخرج من بين أضلعه، سقطت دمعة واحدة من عينه، وتحركت شفتيه

تمهيداً لثورة قادمة، لكن الشفتين كانتا ترتجفان، مضطربتان، مهزوزتان، متفرقتان، مبعثرتان، ضائعتان، حائرتان، كأن كل واحدة منهما آتية من فضاء آخر مختلف عن فضائه، سيبكي، لكن لا..

- تقدم منه ماهر سائلاً إياه: جهاد ماذا هناك، ما بك.

- لم يتلفظ جهاد بكلمة، حاول أن يعيد أجزاءه إليه، حاول يتماسك ويستند إلى نفسه، إلى صبره، حاول أن يبدو وكأن شيئاً لم يكن.

- أعاد ماهر طرح السؤال بعصبية: جهاد أجننت، ما بك، أتدري ما ستكون عليه العواقب لو علم الخواجه بهذا.

هيا.. هيا يا رجل.

كانت الدادا تراقب الشباب وهم يحملون الدمية، وينقلونها إلى خارج المنزل، وجهاد أيضاً كان يراقب وينظر ويحاول ستر سقف السماء كي لا ترى الأرض القاحلة، المطر المتساقط عليها.

تقدمت منه الدادا اعتدال وسألته، متصنعة حنان الأم التي تهتز الأرض تحت قدميها عندما ترى الدمع يتساقط من أعين أولادها الرجال.

-ما بك يا ولدي.. هل ألم بك مكروه؟!

- لا أيتها المرأة الطيبة.. لا شيء هناك.

- لكني أرى الدمع المحجوب في عينيك.

- لا تقلقي.

وأسرع جهاد للحاق برفاقه، لكن صوت الدادا اعتدال أوقفه:

- يا ولدي لا شيء يستحق البكاء، كل شيء في هذه الحياة زائل، لا تبكي على شيء يعوّض، لا تبكي على شيء قابل للتعويض، إبكي فقط لفقدانك عزيز، لأن الموت هو الشيء الوحيد الذي يصعب علينا تعويض ما يأخذه منا.

- نعم أيها المرأة الطيبة، الموت، هو الموت، هو لا يعوض، لكن أي موت، أي موت..

ويتهدج صوت جهاد ثم يتابع:

- إن مات الجسد فهذه سنة الحياة وقضاء القدر، لكن عندما تموت الروح ويبقى الجسد شاهداً على هذا الموت عندما يجف البحر ويصبح قطعة خزف براقة، عندما تختلط عليك الأمور وتصل إلى مرحلة لا تعرف فيها، عيون الخزف من العيون الحقيقية، أهذه أيضاً سنة الحياة، وأهذا هو قضاء القدر، أي قضاء وأي قدر.

وفتح جهاد الباب وخرج مسرعاً تائهاً متعثراً بخطواته وغارقاً بدموعه تاركاً خلفه امرأة تهز الرأس يميناً وشمالاً دون أن تفهم شيئاً أو تتفوه بكلمة، اللهم إلا حركة ضربت بها كفاً بكف وهي تقول «مسكين»، لكنه يستحق أكثر من ذلك.

* * *

كان الخواجه ينتظر عودة الدمية بفارغ الصبر، حيث بدا متوتراً، قلقاً تارة يطفئ غليونه الأسود، ويشعله تارة أخرى، كان كالمكوك أمام باب المحل، يتحرك جيئة وذهاباً تراه حيناً يضع يده على كرشه وفجأة ينقلها ليضرب جبينه بها أو

ليشبكها مع يده الأخرى خلف ظهره العريض المسطح كظهر تمساح قذر.

ثم يقف ليراقب الشارع من آخره، وعندما لا يجد ما يريحه ويطمئنه، يطلق زفرة عميقة ويخبط الأرض بقدمه ويدخل إلى المحل متأففاً. كان غبياً بقلقه، أحمقاً بتوتره، لفت أنظار الجميع إليه، أصبح مضحكة حقيقية، جلس خلف مكتبه الأسود وحملق بالسقف تناول سماعة الهاتف، ضرب عدة أرقام، ثم أعاد السماعة.

- تأفف وقال: لقد تأخر العمال، أيعقل أن تكون القصة قد كشفت أيعقل أن يكون السيدان قد كشفا هذا المقلب، أم أنهما تشرباه بهدوء، سأعاقب الجميع عندما يعودون، سأعاقب الجميع بخصم أجرة شهر كامل.

ثم وقف منتفضاً وصرخ بقوة سأعاقب الجميع، فهمتم سأعاقب الجميع.

نظر إليه العمال بذهول، وتبادلوا علائم الدهشة والحيرة فيما بينهم ثم ذمّ بعضاً منهم شفتيه مستغرباً وعادوا لمتابعة أعمالهم.

لم يكد الخواجة سعيد يستقر مرة أخرى على كرسيه الدوار حتى شاهد الشباب يدخلون تباعاً إلى المحل وهم يحتضنون الدمية، لم يبالوا به بل تابعوا سيرهم إلى الداخل إلى غرفة العمليات.

ابتسم الخواجة سعيد وهرول خلفهم مثرثراً متسائلاً..

- هيه قولوا لي ماذا حصل، أنت يا ماهر هل قال لك السيدان شيئاً. وأنت يا جهاد تكلم هل جرت الأمور على ما يرام، باسل باسل قل هل لاحظت شيئاً غريباً في عيونهم، هيا جميعكم قولوا، قولوا لي، هل تنبه أحد إلى شيء أي شيء.

لكن أياً منهم لم يجبه بكلمة واحدة ودخلوا إلى الغرفة ووضعوا الدمية في المكان المخصص وبدأووا بنزع الخزف عنها.

* * *

كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، حين فتحت داليا باب غرفتها المتواضعة في ذلك الحي، لم تتفوه بكلمة واحدة طيلة الطريق.

جميعهم كانوا برفقتها، ماهر وباسل وجهاد والخواجة سعيد، جميعهم رافقوها إلى بيتها البسيط، ليطمأنوا عليها، وصلت بخير وسلامة ودخلت بيتها بسلام، كانوا صامتين، إلا الثرثار ومن غيره الخواجة سعيد كانت ترمق الجميع بنظراتها، طيلة الطريق.وتغوص إلى أعماقهم، تفهم كل ما يودون قوله قبل أن يتفوهوا به لكن المشكلة أنه لم يتمكن أي منهم من الغوص في أعماق عينيها لأنهما لم يكونا عيني امرأة حقيقية، كانت عيوناً زجاجية، خزفية، لم يستطع أحدهم أن يقرأ المكتوب فيهما، ويفهم أو ويفسر نظراتها إليه، كانت تدرك أن جهاد مغرم بها، قرأت الحب في عينيه والصدق النابع من أعماق قلبه، أشفقت عليه لأنه يحبها، فكرت أن تخبره، أن تقول له، أنها على استعداد تام للهرب معه، إلى أي مكان في هذه الدنيا، أي مكان، هرباً ليس من أب معارض أو أم غير راضية أو مجتمع يرفض ولا يقبل بارتباط كهذا، بل هرباً من عاهة متأصلة، عاهة تفسد المجتمع الذي تعيش فيه والحياة التي تحياها، عاهة لا بد من اقتصاص جذورها من الأعماق، عاهة قد توجد في كل مجتمع وفي كل زمان ومكان، عاهة تدعى الخواجة سعيد،

توقفت داليا أمام باب غرفتها ونظرت إلى جهاد وسافرت إلى عينيه وتمنت لو تقبل الخال المتربع على خده الأيسر، وذهل الجميع عندما تقدمت من جهاد ومررت إصبعها على خده وتحسست الخال ثم قربت فمها ولثمته وبعدها استدارت لتفتح باب غرفتها وتدخل دون أن تتفوه بكلمة واحدة.

* * *

استلقت داليا على السرير وحدقت بسقف غرفتها البسيطة، ثم أغمضت عينيها لتدقق النظر بعيني جهاد.

ما تزال تراه، أطلقت زفرة، خرجت من أعماقها.

كانت حارقة، تركت سخونتها نفقاً في أعماقها.

الحياة قاسية، قالت لنفسها، ثم تذكرت عينيه، يديه الباردتين كانت أصابعه مرتعشة، كان صقيع الليل قد تسلسل إليهما حتى لكأنها شعرت، بأنهما قد تيبستا، تمنت في حينها أن تمسكهما، أن تأخذ يديه بيديها، تضمهما، عساها تعيد الدفء إليهما، تعيد الحرارة المفقودة، الحنان الذي لمسته في عينيه الرائعتين، الحياة قاسية، قالتها مرة أخرى.

الحياة قاسية، لكن هناك شيء جميل، هناك أمل حلو سألقاه غداً. إن جهاداً جعل الحياة حلوة وجميلة، بل إنه، الحياة بذاتها، الحياة قاسية، لكن يكفي أن يكون هناك شخص اسمه جهاد موجود بها. أحلم بلقائه غداً، وسأنتظر غداً فقط لأراه.

لا أكثر ولا أقل، لن أخبره بأنني أحببته لن أسبب له ألماً من عمه القاسي، سأحتفظ بحبه في قلبي المسكين، قلبي الحزين، أعرف أنني لا أليق به، أعرف أنني أختلف عنه ويختلف عني، هو ابن الذوات، ابن الحسب والنسب هو غني هو إنسان وأنا مجرد دمية، دمية من خزف تباع وأُشرى كأي متاع وبلا ثمن، أباع وأشترى بلا ثمن بلا ثمن، بلا ثمن وأجهشت بالبكاء، وسالت الدموع على خديها النضرين، مسكت الوسادة، ووضعتها على رأسها وأطبقت عينيها على صورة رائعة الجمال صورة جهاد، بعد أن طلبت من الله أن يحفظه ويحميه، ثم قالت كلمتها الأخيرة في آخر لحظة من يوم شاق مؤلم ومضني.

– الحمد لله سأراه غداً وسيجعل للحياة طعم، الحمد لله، لأن هناك قمراً يضيء سماء الحياة المظلمة.

* * *

كانت ليلة أمس مطمئنة للخواجة سعيد ولشباب الورشة، حتى داليا اطمأنت لليلة أمس وأصبحت أكثر ثقة وجرأة وأكثر ضياعاً كانت ضحكتها مجلجلة، فاجأت الجميع، لم تضحك هكذا من قبل ولم تطلق النكات والمزاح من قبل، كانت تصرفاتها غريبة، ملتصقة دائماً بجهاد، وكأن خجلها تلاشى، وكأنها نسيت السنوات العشر التي ضاعت في انتظار حبيب، الخجل منعها من مصارحته، كانت مفاجأة حتى لجهاد، وأكثر ما فاجأه وأثار دهشته، مسكها ليده أمام الجميع والقبلة التي طبعتها على جبينه والضحكة التي أعقبت هذه القبلة وكأنها من بنات الليل.

تسمر جهاد في مكانه تقدم منها وحدّق في عينيها وأجابته دون أن يتلفظ بحرف واحد.

- غريب، لا.. لا، لا شيء غريب، هكذا أفضل، الضحك — الفرح — الغناء — الرقص — هز الخصر، أليس جميلاً يا جهاد.

تقدم منها جهاد ونظر إلى عينيها لكن ضحكة فاجرة مفاجئة صدرت عنها وضاع لها صواب جهاد فجعلته يشعر وكأنه فقد

شيئاً، انتابه إحساس غريب بالفشل وبالضياع، أصابته رعشة في قلبه ورجفة في يده أفقدته الإحساس بما حوله فلم يستيقظ إلا على صوت صفعة قوية مدوية كان قد وجهها إلى أجمل وجه أحبه في الحياة.

- أتصفعني قالتها داليا بعد أن تحسست خدها بيدها، أتصفعني لكن لا عليك، لا تخشى، لن أقابلك بصفعة أخرى، لا تهتم، صفعة من صفعات هذا الزمن المر، القاسي، لا تأبه بما فعلته يدك، وأقول لك يا ليت كل صفعات الزمن كصفعة يدك الغالية الحبيبة إلى قلبي، لست حزينة، انظر انظر، لم أتأثر ولن أتأثر، اعتاد الخد على اللطم يا جهاد، لكن سأقول لك شيئاً: ما أصعب أن يفقد الإنسان الإحساس بالألم.

ثم أطلقت ضحكة غريبة أعقبتها بأخرى ثم بدأت بالرقص والغناء وكأن شيئاً لم يكن.

بحبك والله بحبك

وحدك يا حبيبي بحبك

لا تسألني عن أسبابي

حبك وحدو والله بيالي

بحبك والله بحبك

وحدك يا حبيبي بحبك

ولم تكد تنهِ داليا أغنيتها حتى تقدم منها ذلك الأكرش بغليونه الأسود ورائحته الكريهة قائلاً:

- هم.. هم.. ألم أقل لك منذ البداية أن هكذا أفضل، لكن ما الذي غيّر أحوالك يا فتاة، لم كل هذا الإشراق والجمال، يا الله كم أنت ممتعة.

- ممتعة: ونظرت إليه ثم تقدمت منه ووضعت يدها اليمنى على كتفه وتابعت باستهزاء:

ــ ممتعة، أغريب أنت عن الحياة يا سارق الحياة، الآن أحسست أن الحياة ممتعة، لكن يا سارق لم تسرق الحياة من عيون الأطفال والأطفال من أحضان الأمهات والأمهات من أحضان الحياة، لما تستغل وتسرق ما ليس لك حق به، لِمَ تغتصب ما لا حق لك به، لِمَ تخول لنفسك ما لا ترضيه لغيرك

لِمَ تبيع ضميرك مقابل حفنة من المال، لم تشرد الأطفال والأمهات، لما تستوطن في أرض ليست لك وتقول أخيراً ممتعة، ممتعة..

ثم ابتعدت داليا قليلاً عن الخواجه، وقفت متواجهة معه وقالت له محذرة، وبلهجة قاسية، قساوة الحياة وحادة، كما طعم الحياة، وقوية كما الإيمان بالله:

- اسمع يا خواجه سعيد، أنت.. أنت بالذات وبالتحديد، لا أسمح لك أن توجه إليّ أي سؤال.. أو أية مجاملة، أنت بالذات أكرهك، هنا، أنت الوحيد هنا من يثير اشمئزازي وقرفي أنت هنا وأنت فقط غراب أسود ونذير شؤم.. أفهمت، أفهمت يا غراب البين.

وجحظت عينا الخواجه سعيد ووقف مذهولاً مصعوقاً كما حصل للشباب تماماً. ماهر وباسل وجهاد والمرأة التي ترافقهم جميعهم ذُهِلوا، جميعهم كانوا سعداء، ابتسموا، تمنوا لو يستطيعون قول ما قالته داليا، جميعهم يحملون المشاعر نفسها

والأحاسيس ذاتها، استبشروا خيراً، حلقوا بداخلهم من الفرح، انتشت أرواحهم وانتعشت أنفسهم..

لكنهم قطبوا حواجبهم، تسمروا في أماكنهم شابكوا أيديهم خلف ظهورهم، نظروا، فجحظت أعينهم، وخرجت من محاجرها، وطارت في الفضاء، وبقوا بلا عيون ترى، وبلا آذان تسمع وبلا ألسنة تتكلم.

لم تؤثر ملامحهم المتحجرة على قوتها وعلى جبروتها، بل وضعت يديها على خصرها، تخصرت وتبخترت ودارت حول الجميع بغنج ودلال كانت تنقل قدميها مختالة وهازة خصرها ووركيها تارة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار، ثم وقفت وقالت بصوت عالي، صوت غير صوتها المخنوق الضعيف الخافت الباكي، صوت جديد وُلِدَ حديثاً.

– هيه.. هيه، هيا أسرعوا وجهزوني، لا وقت لدي لأضيّعه يا خواجه سعيد، ((وقالت كلمة يا خواجه سعيد)) بمنتهى الدلال والغنج وأعقبتها بضحكة وبنظرة حادة إلى شباب الورشة إلى ماهر وباسل وجهاد وسرعان ما أعقبوها بضحكات متتالية إلى

أن أصبحت قهقهات احتار في أمرها الخواجة سعيد فما كان منه إلا أن رمقهم باشمئزاز ثم استدار وخرج من غرفة العمليات ليجلس على مكتبه محتاراً مفكراً مستغرباً إلى أن انتهى به الأمر إلى زم شفتيه ورفع كفيه عن طاولة مكتبه قائلاً والله غريب.. أي سيدي الآن لهم، وغداً لي، سيرون..

* * *

كانت العاشرة تماماً عندما قرع جرس الباب في الفيلا الفخمة التي يقيم بها السيدان الأنيقان «السيدة شيري والسيد حليم» كانت هذه الفيلا في الطرف الجنوبي للمدينة، منفردة لا يحيط بها أي بناء، محاطة بالحدائق من جهاتها الأربعة، كانت هذه الحدائق على الطراز البولوني، وقد توزعت المسابح فيها مع الحمامات الخاصة والبوفيهات وملاعب مختلفة للأطفال الصغار وتنس وسلة للكبار.

كانت مظاهر الغنى والثراء الفاحش ظاهرة في كل جزء من أجزاء هذه الحديقة الغنّاء، وحتى على شكل الدادا اعتدال

وعلى وجهها المنفوخ وهندامها الأنيق وعلى طريقة استقبالها للشباب عندما فتحت لهم الباب الفخم ودعتهم للدخول.

- أهلاً وسهلاً بكم، تفضلوا، أهلاً.. أهلاً.

-أهلاً بك «قالها جهاد» هل السيدان موجودان؟!..

- لا لكن بإمكانكم الانتظار هنا ريثما يعودان.

- ومتى يعودان، علينا أن نتواجد..

لكن الدادا لم تمهل ماهر لينهي كلامه، بل قاطعته:

- لا.. لا لن تتمكنوا من أخذها ظهر هذا اليوم، لأن السيدين مشغولان.

- لا بد من أخذها للصيانة، أسرع باسل بالقول، لكنها أيضاً لم تمهله.

- نحن نأسف، في هذا اليوم بالذات الوضع صعب والظرف لا يسمح، اليوم بالتحديد توجد مناسبة خاصة جداً للسيدين وخاصة في الوقت الذي ذكرته، لن يستطيع السيدان استقبالكم أو حتى فتح الباب لكم، لكن جهاد تابع وقال بلباقته المعتادة.

- لكن يا سيدتي..

- أرجوك يا بني لا تتابع، عليّ إخباركم بأن هذا اليوم خاص، ولن تتمكنوا من أخذ الدمية إطلاقاً.

- لكن يا سيدتي الدمية بحاجة إلى صيانة ومتابعة دائمة ونحن..

لكنها قاطعته مرة أخرى..

- يا بني.. يا بني كن مرناً، يوم واحد لن يؤذي الدمية. ثم إنني أنا من سيقوم بمتابعة أمورها وصيانتها إن لزم الأمر، وأؤكد لكم بأنه لا حاجة لأخذها هكذا وبشكل مستمر.

- لكن يا سيدتي.. وقاطعته بحزم.

- أرجوك، أرجوكم يكفي كلام، ضعوا الدمية في مكانها وارحلوا، السيدان مشغولان اليوم ولا وقت لديهما لإضاعته.

وتمتمت الدادا ببعض الكلمات غير المفهومة ثم استدارت واتجهت إلى الداخل، خيم الوجوم على وجوه الشباب وبدت الدمية أكثر شحوباً ووجوماً وألماً لكنها دمية. ولم يتبادر إلى ذهنها إلا أمر واحد فقط لا غير هو أن تسلم نفسها للمجهول

وإن حصل وبقيت أكثر من ساعتين أو ثلاث ستصب بالانهيار وتتحطم، وليحدث ما يحدث، والتقت عيناها بعيني جهاد، ابتسمت وأومأت له بطرف عينها، انتابته قشعريرة، وازداد خفقان قلبه، تنهد وهز برأسه، ووافق على الانصراف، وضعوا الدمية في مكانها المخصص ثم استداروا واتجهوا نحو الباب ليخرجوا، لكن جهاد استدرك وتوقف للحظة، ألقى نظرة على الدمية وأخرى على هذا البهو الفسيح، أغمض عينيه وأطلق زفرة حارقة أصيب بعدها بضيق في تنفسه، بدا وكأنه سيختنق، أسرعت نحوه الدادا اعتدال وأمسكت بيده:

– يا بني لماذا لا تذهب إلى الطبيب، إنك مريض ولا بد لك من علاج، لكن جهاد لزم الصمت ثم ألقى برأسه على كتف الدادا وأجهش بالبكاء.

كان بكاؤه صدمة لشباب الورشة ولداليا، تمنت داليا في حينها أن تخرج من قمقمها أو تكسر أسوار سجنها، أن تحطم نفسها وتلقي بحطامها على روحه المهشمة المتصدعة المكسورة، تمنت لو تستطيع إطلاق العنان لصوتها للهرب منها، تمنت لو تهرب صرخاتها من أعماقها لو يتخلص أنينها من سجنه لبلف جسد

الحبيب الممزق، لو تقول آه.. آه.. حتى الآه صَعُبَ عليها إطلاقها يالله قالتها لنفسها، حتى الآه تأبى أن تخرج لتزيح عبء حمل ثقيل عن كاهلها، إطلاق الآه.. الآه.. أصبح من الأمنيات. سأحطم قيدي وأمزق صدري وأخرج من ذاتي.

إرحل يا جهاد.. نطقتها أخيراً، نطقتها بصوت يختلف عن أصوات البشر، بأحرف تأن أنيناً مؤلماً مخيفاً، بصوت مخنوق يكاد لا يفهم.

-من تكلم تسأل الدادا؟!

- أنا قالها ماهر.. إنني حزين على جهاد، إنه مريض، وأنا مصاب بالزكام.

- وقلّد ماهر الصوت الذي صدر قال:

- ارحل يا جهاد.. هيا بنا.

تقدم منه باسل وماهر وأمسكاه من يده وكتفه وقدم كل منهما التحية للدادا وبادلتهما بابتسامة تحمل بين طياتها الدهشة

والاستغراب، وخرجوا وأغلقت الباب خلفهم ودخلت هي إلى المطبخ منادية على حمزة.

* * *

في الخارج أصرّ جهاد ألا يغادر، من جانب هذا القصر، بقي متسمراً في مكانه، كان مطأطئ الرأس، مسلوب الإرادة، مكسور الخاطر رفع رأسه ونظر إلى ماهر ثم إلى باسل ثم استدار إلى الحائط وأسند جسده المتعب عليه، وأغمض عينيه متألماً.

تقدم منه باسل بهدوء ثم أمسكه من كتفه بعطف وشفقة نظر إليه جهاد وألقى برأسه على كتفه فعانقه باسل بحب وصدق وسأله بصوت منخفض حزين:

– تستحق داليا كل هذا الحب، أليس كذلك، بإمكاننا إنقاذها، فكر بطريقة نعيدها إلينا.

– لم يجب جهاد ولا بحرف، بل رفع رأسه عن كتف باسل وعاد ليسند جسده على الحائط متأوهاً متألماً..

بادره باسل بإصرار: ليس بهذه الطريقة تعالج الأمور يا رجل، أتعلم ما تكون عليه النتيجة لو أدرك الخواجة سعيد حالة الضعف التي أنت بها الآن، هل توقعت المصير الذي ينتظرك ومصيرنا، ألا تعلم أننا شاركنا في عملية نصب واحتيال، كن، من أجل داليا، أكثر تماسكاً أستحلفك بها، لم نعهدك هكذا، أرجوك لا تترك مكاناً للصمت في قاموسنا.

ثم ينظر إلى ماهر متوسلاً: أنت أيضاً لا تصمت، تحركوا، افعلوا شيئاً وإن لم تستطيعوا، فقولوا، أي شيء، وإلا خسرنا كل شيء، لا تكونوا كالبهائم صم بكم، مصيرنا واحد، وحياتنا مشتركة، دافعوا عن حقنا الذي سيضيع، انطقوا، لو كان حجراً لنطق.

لم يكن ماهر مبالياً بما يحدث، فكل ما يعنيه في الأمر هو ما سيحصل عليه من مال، كان كثير الصدام مع جهاد وباسل، والسبب واضح، التباين الكبير فيما بينهم.

في بداية لقاء هؤلاء الثلاثة، كانوا متشابهين في الطباع أو هكذا تهيأ لهم، كانوا متحابين جداً، لكن ماهر أصبح شخصاً آخر،

ربما بسبب المصائب التي واجهته في الحياة، أو ربما بسبب موت شقيقته الصغرى بمرض، لم يستطع أن يؤمن لها علاجاً منه، أو بسبب جحود أقربائه لأسرته ولأمه تحديداً أو لاعتقاده أن أخته الصغرى ماتت لأن عمه وأولاد عمومته لم يبالوا بمرضها، ولأنهم على خلاف قديم مع والده بسبب الإرث والمال وأشياء أخرى أو لأسباب ثانية جعلت ماهر يقدس المال ويعتبر أن المال هو الحياة لأن مبدأه في الحياة وحكمته التي أصبحت لا تفارق لسانه هي ـمعك قرش بتسوى قرش» و «ما معك شي ما بتسوى شي» لذلك يحاول أن يجمع ثروة كبيرة بأي طريقة وبأي ثمن لاعتقاده بأنه سيجعل الجميع يركعون تحت نعاله عندما يرون الملايين تتراقص بين أصابعه، لهذا ولكل هذه الأسباب نفر ماهر من جهاد واعتبر أنه سيكون سبباً في إفشاء السر وضياع ما حصلوا عليه من مال، ولذلك رفض أن يتكلم مع جهاد ولو حتى كلمة واحدة. بل أشار بإصبعه إلى باسل قائلاً:

- اسمع يا باسل إذا لم تأتِ معي اللحظة ونغادر هنا بأسرع وقت سأخبر الخواجة بالذي حصل وكفى جنوناً، وأنت يا

سيد عاشق اعشق كما تريد وكما يحلو لك، لكن بعيد عنا، بعيد من هنا وعن مصالحنا، لا نريدك أن تفضح أمرنا وإن حصل وافتضحنا سيكون حسابك عسيراً ولا تستغرب أن يكون القتل.

قال ماهر هذه الكلمات ثم استدار متجهاً إلى السيارة.

وقف باسل مشدوهاً من كلام ماهر، لكنه ربت على كتف جهاد وقال:

- لا عليك سأتبعه، افعل ما تراه مناسباً، وسنعود بعد مضي الساعتين.

وأسرع باسل إلى سيارة الجيب فتح الباب وجلس بجانب ماهر وانطلقت السيارة.

* * *

كان جهاد يراقب صاحبيه ثم تقدم خطوتين وبعدها توقف وكأن فكرة ما لمعت في خياله، فما كان منه إلا أن أسرع إلى سيارته البيك آب وجلس فيها، دقق النظر فيما حوله وتساءل

عن سر هذا الثراء الفاحش، تهيأ له وكأنه هنا للمرة الأولى، لم يكن هذا بيتاً، بل إنه قصر من قصور ألف ليلة وليلة، شكله من الخارج غريب ومخيف، فما هو الحال في الداخل، حيث ترك روحه وحياته، حبه ومحبوبته.

وقرر أن يضع خطة سريعة لاختطافها، لكن من أين سيدخل، كانت الحدائق تحيط بهذا القصر من كل جانب والتسلق من إحدى النوافذ يبدو أمراً صعباً بل في غاية الصعوبة، كانت النوافذ محصنة وكأنها لقلعة، يخشى من اقتحامها، ليس هذا وحسب، بل ما أثار دهشة جهاد هو كثرة المسابح في هذه الحدائق، فبعضها مغلق بالزجاج وكأنه غرفة أو صالون كان أحدها دائري الشكل وقد اصطفت على حوافه ست مناضد رخامية وحول كل منضدة أربعة كراسي من النوع الفخم وبالطرف المقابل وُجد مسبحان آخران أحدهما مربع الشكل مكشوف منار بإضاءة حمراء وصفراء وخضراء وعلى أحد جوانبه بوفيه وكأنه في مطعم عام وقد انتشرت على جوانبه الأربعة المناضد والكراسي الفخمة المتباينة الأشكال والألوان والمظلات البحرية المزركشة والأسرة البحرية، كان وكأنه

شاطئ بحر، أما المسبح الثالث ظهر وكأنه للصغار واتضح ذلك من خلال توزع الألعاب والمراجيح والأشكال الجميلة المحببة للأطفال في كل الاتجاهات وكانت هذه الحديقة تضم جناحاً خاصاً بحيوانات الزينة أو كما يسمونها «حديقة حيوانات» وكان هذا الجناح أو هذا الركن في بداية الحديقة ويمتد على طول الممر إلى أن يصل إلى باب الفيللا الذي يصل طوله إلى حوالي الألف متر وعرضه أكثر من عشرين متراً بينما كانت أغصان الأشجار التي تعانقت في أطرافها قد شكلت ظلاً يحمي الممر والحيوانات من أشعة الشمس.

لم يكمل جهاد معاينته للحديقة لأن أحدهم، أي هؤلاء العمال الذين يعملون في الحديقة تقدم منه وقطع عليه تأملاته من خلال عدة نقرات كان قد نقرها على زجاج نافذة السيارة فتنبه جهاد مرعوباً وصاح بصوت عالي:

- نعم..

نظر ليجد ذلك الرجل الأحدب البائس بملابسه الرثة المتسخة بالتراب وهيأته البسيطة التي تنم عن إنسان فقير بائس.

أومأ بإصبعه لجهاد أن يترل من السيارة، لكن جهاد اكتفى بفتح الشباك ببطء وتعب شديدين، لم يتفوه بكلمة بادره الرجل قائلاً:

- ماذا تفعل هنا يا بني، هيا ارحل.

-ولماذا أرحل؟!

- بل قل ولماذا تبقى، الناس هنا يا بني لا يخافون الله، وقد يسببون لك ضرراً.

- وأي ضرر سألقاه إن بقيت هنا، فأنا أحد شباب الورشة القائمين على حماية الدمية وصيانتها، نحن دائماً..

لكن الرجل قاطعه متوسلاً:

- يا بني لا صيانة في هذه اللحظة، وفي هذا اليوم أيضاً أرجوك وأتوسل إليك ارحل، اذهب من هنا وإلا..

وصمت الرجل، صمت بألم، لكن جهاد بادره..

- وإلا ماذا يا عم..

نظر الرجل إليه بعينين لم يفهم منهما جهاد شيئاً وقال:

- وإلا قد تصبح في عداد الأموات..

- ألهذه الدرجة، قالها جهاد مشدوهاً.

- وأكثر، ولا تكثر من الحديث، قد يأتي أحد هؤلاء العمال إلى هنا وقد يحدث ما لا تحب ولا أحب أنا، على كل حال إذا رغبت في البقاء فاذهب إلى تلك الناحية، هناك في هذا الاتجاه.

وأشار له بيده حيث يجب أن يذهب ثم تابع قائلاً.

- لكن كن حريصاً.

صمت جهاد للحظة، ثم أغلق نافذة السيارة وبدأ بتحريكها وذهب إلى الاتجاه الذي أشار إليه الرجل الأحدب.

وقاد جهاد سيارته إلى ذلك المكان، كان خارج حديقة القصر تقريباً على الشارع العام.

خرج من باب الحديقة، كان الباب حديدياً أسوداً تجاوز طوله الثلاثة أمتار وعرضه أقل بقليل، كان يشبه أبواب القلاع. كان ضخماً، ومع ذلك تراءى لجهاد بأنه أضيق من خرم الإبرة واحتار في أمره، كيف سيخرج منه وكيف سيتدبر هذا الأمر.

لم يكن مقتنعاً بكلام الرجل، توقف لبرهة مفكراً.

- «قد يكون في الأمر شيئاً غريباً، لكن ماذا سيكون، ربما هذا الرجل أراد بطريقته الذكية هذه أن يخرجني، لكن ما للدموع كانت تملأ عينيه، قد يكون هناك مرض لديه، أو..» وذمّ جهاد شفتيه ثم استدرك..

- «أو.. لا أدري، لقد أثار فضولي، كنت أنوي الرحيل من هنا إلى أن يأتي موعد الصيانة، لكن لا.. لا.. سأبقى حيث أنا.. وسأعمل على إخفاء السيارة قد تكون سبباً لخطر ما.. وربما لا، أكيد الأمر ليس بمثل هذه الصعوبة، فأنا أعرف السيد والسيدة ولا داعي للقلق إنهما لطيفان، كما أ ن السيدة تبدو بريئة وساذجة، صحيح أنها فاتنة جميلة، لكن هذا لا يمنع من أن تكون بريئة وطيبة حتى السيد، إنه طيب، هكذا بدا لي وأكيد لا يقوى على ذبح عصفور، عصفور واحد فقط، فأي شر أو خطر يأتي من هؤلاء إن هذا الرجل مجنون، ولن أبرح من هنا، لن أبرح وروحي في الداخل قد تصاب بالانهيار، قالت لي بعينيها أن أرحل، هي طلبت مني أن أرحل وهي ستتدبر الأمر، كيف ستتدبر الأمر، ما هذا الهراء، إنها

أحياناً تكون مجنونة، كيف تطلب مني أن أرحل ألا تدري مدى عشقي لها، ألا تدري مدى حبي لها، ألا تدري أنها بهجة الحياة ونورها، كيف سيهدأ لي بال وهي بهذه الحالة، دمية في قصر غريب، قصر يعج بالأفاعي تقول لي هي ستتدبر الأمر، ما هذه المسخرة يا داليا، أنت في قمقم، أنت كتلة من زجاج الآن، لا تستطيعين الحركة، مقيدة أنت، مسجونة، لست ملكاً لنفسك لست لك يا داليا، أنت لست لك ولست لي، لست لك ولست لي، لمن أنت ولمن أنا، من أملاك مَنْ ولمن، إلى من سنباع بعد الآن، آه يا داليا، آه يا جميلة ما أقسى لحظاتك الآن».

كان جهاد جالساً خلف مقود السيارة، منهك الجسم، خائر القوى ملقياً رأسه على مسند مقعده، لكن شيئاً ما جعله يتنبه، شيء جعله ينسى إرهاقه وتعبه، كان صوت عدة سيارات قادمة من بعيد مباشرة تبادر إلى ذهن جهاد بأن يخفي سيارته وأسرع باختيار مكان بعيد عن الأنظار، ثم هبط منها وارتأى لنفسه مكاناً آمناً، ثم بدأ بمراقبة هذه السيارات القادمة، كان عددها خمس والسيارات الخمس محشوة بالبشر، دقائق قليلة

ودخلت هذه السيارات جميعها من باب الحديقة واتجهت كل واحدة منها إلى مكان مخصص وكأنه خصص لها أو كأنهم قد اتفقوا فيما بينهم مسبقاً على كيفية وقوفهم.

كانت حركات السيارات متناسقة منظمة وكأنها فرقة عسكرية مدربة وكان جهاد ذكياً في حركته وفي تنقلاته وفي مراقبته، لم يلحظه أحد و لم يشك أحدهم ولا للحظة بأن غريباً في المنطقة.

* * *

كان المنظر غريباً، نساء ورجال، شباب وشابات يتأبطون أذرع بعضهم البعض ويتكئون على بعضهم البعض، يقهقهون، ويعقبون قهقهاتهم بفكاهات ونكت بشعة، يمشون وكأنهم سكارى، وكأنهم نيام الجميع يرتدون الملابس السوداء.

ولولا هذه القهقهات المدوية، لقلت إنهم ذاهبون إلى مجلس عزاء، هكذا قال جهاد، أصابه الذهول، نظر إليهم ثم رفع حاجبيه وقال:

«لا شأن لي» وصمت، بل وجم ثم تنبه وصرخ.

أخ.. إنها داليا، إنها في الداخل، قد يصدمها أحدهم فتقع وتكسر قد يتطاول أحدهم على الخزف فيكسر، ما العمل.. ما العمل، علي الانتظار، إلى أن تنتهي الساعتين، ساعتان فقط وأدخل من أجل الصيانة، عندها سيقولون لي لا.. لا يمكن أخذها، وأنا في تلك اللحظة سأتصرف، قد آخذها عنوة وقد أدعها المهم أن أطمئن عليها، ربما يسمحون لي بأخذها والذهاب بعيداً درءاً للفضيحة، إنهم سيرتكبون آثاماً جساماً، ولا يعنيهم من أمر الدمية شيئاً، سيدعونني آخذها، أو ربما لن يتنبهوا فلديهم ما هو أهم.

دخل الجميع إلى القصر، لم يبق أحد في الخارج، إلا جهاد، حتى العمال في الحديقة، جميعهم دخلوا، العجوز الضئيل وعامل الكراج ومنظفو المسابح والعشابون ومروضو الحيوانات.

الجميع دخلوا، إلا جهاداً، وحده فقط بقي خارجاً.

آه لو أني أستطيع الدخول، لو أنهم لا يعرفونني، لسارت أموري على ما يرام، كأي واحد منهم، من هؤلاء العمال، عمال التنظيفات أو عمال الحراسة، أكيد الوليمة عامرة، وفخمة لا

بد أن تكون داليا جائعة الآن وبحاجة لقطعة لحم أو حلوى أو خبز ستتلوى من الجوع والولائم عامرة أمام ناظريها، لعلها لم تأكل اليوم ستجوع، ستموت من الجوع عندما ترى هذه الولائم خاصة وإنها كانت دائماً تخبرني بحلمها عن الخبز الأبيض المعجون بالحليب، ما السبيل لإنقاذها، ما السبيل يا الله.

آه، لو أنهم معي، لو أن باسل وماهر لم يتركاني، لو أنهما هنا لتدبرنا الأمر، أكيد بعد الولائم والغداء الفاخر، بعد اللحوم والحلويات لا بد من ساعة للنوم، الجميع سيغطون في نوم عميق رجالاً ونساء، لن يبق أحد منهم بلا نوم سينامون على الأقل دهراً كاملاً. حينها سأقرع الجرس وتخرج الدادا وأنا آخذ الدمية، الأمر بسيط بمنتهى البساطة، لِمَ هذا التعقيد، لِمَ أنا مشوش، الأمر بسيط وسهل، ويسير لكن هل هو يسير وسهل على داليا، داليا.. داليا..

* * *

وكأن داليا سمعت صوت جهاد خارجاً من أعماقها، أو ربما هذا صوتها هي ينادي عليه، إنها خائفة وتكاد تموت من الخوف.

يا إلهي إنني أرتجف قالت داليا

علي أن أكون أكثر تماسكاً، وإلا سأكسر، أتحطم، وحينها سيلقون بحطامي في حاويات القمامة، صحيح أنني الآن في حاوية كبيرة جداً، مليئة بقاذورات المجتمع، لكنني أشعر بالحرية أكثر، أشعر بالنظافة، ها أنذا في كيس نظيف، لن يلمسني مخلوق، أما هؤلاء فهم في أكياس القذارة بل هم القذارة بعينها.

أشعر بالحرية الآن، أشعر وكأن روحي المغادرة عادت لتوها، أنا حرة، في منتهى الحرية، صحيح أنا لا أملك نفسي الآن، لكن يكفي أن أملك داليا، تلك الفتاة الرقيقة الشفافة، سيدة نفسها، سيدة هذا القصر وأطلقت داليا الآه.. آ..

لكنها لم تخرج من فمها، بل من عالم آخر لا صوت فيه ولا حياة وتأوهت، ورحلت إلى أعماقها، بكت وتألمت وتكلمت.

آه، آه.. ساعات طويلة تمر دون أن يتفوه المرء بكلمة بل أيام، لقد مضى علي، يوم وليلة بتوقيت السنة الضوئية، يوم وليلة لم أتفوه بأي كلمة والسبب بسيط هو أنني دمية، ولا يوجد من أكلمه، سأجرب وأعود لأنطق بكلمة، سأحاول أن أسمع صوتي، سأنطق بأي كلمة، حسناً سأقول بصوت عالي، صعب أن تمضي الأيام وأنت تدرك بأنها تمر وتمضي دون أن تستطيع إنجاز أي عمل تحبه، أو تطمح إليه صعب أن تدرك قيمة الوقت المهدور وأنت غير قادر على فعل أي شيء سوى ترقبك مرور الأيام، الوقت، الزمن المقتول.

وعيناك جاحظتان إلى المجهول، إلى اللانهاية، وقلبك يعتصر ألماً وحزناً على هذه الأيام المهدورة، وأنت تشعر بعجزك تماماً عن تنفيذ أبسط ما تطمح إليه، الوقت متوفر وأنت عاجز، الوقت متوفر وأنت عاجز، أنت عاجز، خالي الوفاض، والعجز هو باختصار عجزك المادي، فقرك المدقع، العدو اللدود الذي يقف حائلاً بينك وبين الحياة، بينك وبين الناس، بينك وبين نفسك بينك وبين سماع صوتك.

وارتفع صوت مخيف، صوت أخاف داليا، كانت أصوات نساء ورجال، مخيفة، ترتل تراتيل غريبة وترسل نغمات تائهة، تنبهت داليا لتفهم الكلمات، لكنها لم تفهم شيئاً.

قلبي الشاب دائماً

قلبي مشكلة كبيرة

قلبي يحب، ينبض بالحب

في كل مراحل الحياة

قلبي الشيخ ينبض

قلبي الشيخ ينبض

توقفت الجوقة وبدأت الموسيقا الصاخبة بالارتفاع، وبدأت داليا ترتجف وأُطفأت الأنوار لم تعد داليا ترى شيئاً، لكنها تسمع ضحكات وقهقهات وغناء ورقص، ثم خيم صمت رهيب أخافها، ما لبثت أن سمعت صوت رجل متقدم في السن، يرتجف، يعلو وينخفض، كان يقول كلاماً غير مفهوم.

تمنت لو تشعل الأنوار لترى شكله، لقد أثار غضبها كلامه القذر «باسمي أنا الإله الأعظم لعالمكم وكل هذه الدنيا.. باسم رفيقي وقريني وتوأمي ابن السامرة الذي يطيب لي أن أدلله بترانيم اسمه بحذف حرفين ليصبح سام «أو العم سام» لكل البشر..

- اللعنة عليك أيها الوغد، قالتها داليا ومن ثم نسيت ألمها وحزنها وقمقمها اللعنة عليك أعادتها مرة ثانية، لا بد من فعل شيء، أي شيء، لا بد من الوحدة، لأنها الحل الوحيد لحصولي على الاستقلال والحرية، لا بد من أن أهزم هؤلاء المحتلين، سأتحد مع ذاتي، إن وسائل الحرية موجودة لدي القوة الحقيقية وتكمن في الوحدة سأتحد مع كلي، مع كل ممتلكاتي سأحقق الوحدة بين ذكائي وجمالي وعقلي وعاطفتي وثقتي بنفسي، بجرأتي بثقافتي، برغبتي في الحصول على الحرية بطلاقة لساني، بمحبتي للحياة وللناس، وبمحبتي لنفسي وعندها ستتشكل لدي قوة عنيفة أهزم بها هذا الاستعمار، هذا المحتل الغاشم الذي يسيطر على أرضي، على جسدي، هذا الجسد الفاتن.

وارتفع صوت ذلك الرجل واشتدت نبرته وكزّ على الكلمة «إن العم سام هو عمكم، وعم كل من يؤمن بنا، لأنه أخي والنسخة البشرية مني وهو شفيعي لدى البشر، ولولا أنه جاء لاحتنكت كل البشر بنعمتي ولكنه جاء مخلصاً لكم ومحققاً لآمال المعذبين في الأرض، حاولت داليا أن تكتم غيظها، كادت تنفجر، تمنت لو تحطم قمقمها وتخرج لتبصق على وجه ذلك الداعية، لكن إنارة الأضواء فجأة أرعبتها، أخافتها، كان الرجل كما توقعت، طويلاً، ضخم الجثة، ذقنه البيضاء والكثة أصبحت موازية لصدره وكأنها وهو ذاهبان في طريق واحدة، لا معالم له، كان يرتدي جلباباً أسود ويضع على رأسه قبعة مستديرة الشكل سوداء اللون عليها شعار لم تتبين داليا ماهيته، كان هذا الرجل يقف على منصة دائرية الشكل، في القسم الأيمن من الصالون الذي تحول وتغير واختلف عما كان عليه، كان في الصباح وليلة أمس ملوناً بألوان وأثاث مختلف عما هو عليه اللحظة، وكأنه منزل آخر كيف يتبدل الأثاث بهذه السرعة تساءلت داليا، لم يكن هناك مسرح وكراسي ومنصة.

أما الآن فمنصة وكراسي، هناك مسرح، ذو لون أسود، وستار أسود وسجاد أسود ولوحة كبيرة علقت خلف المنصة على الجدار الأسود لم تفهم منها داليا شيئاً.

كانت تتأمل لكن جعجعة هذا المحتال قطعت تأملاتها عندما أصدر صوتاً يشبه نعيق الغراب أو شهيق الحمير أرعبها عندما قال:

احتفلوا يا بني الظلام، فاليوم بداية عمر جديد في تاريخ هذه الأرض وتاريخكم.. إنه تاريخ الأذن لكم بالسيطرة على البشر لخدمة إلهكم وتوأمه، فأنا هذا الرجل، أنا».

ثم تحرك الرجل خطوتين ورفع ذراعيه في الهواء وكأنه بهلواني، أو قرد في سرك، وجحظت عيناه وكشر عن أنيابه، وتبين للحظة وكأنه الشيطان بذاته، ثم نطق بالكلام وكأنه مكلف بتأدية دور العفريت.

«اشربوا الخمور.. فلا بد للعقول من راحة.. وأقيموا الولائم.. وافعلوا ما شئتم..»

ودبت الرعشة في جسد داليا، وانتابها خوف شديد، وحاولت أن توحد ذاتها، وتبعد الوحش عنها، كانت الإنارة حمراء والستائر سوداء، وفي بقع أخرى من الصالون، كان الظلام دامساً، حاولت داليا أن تبحث بعينيها عن السيدين، حليم وشيري.

لكنها فوجئت، إذ رأت السيدة الأنيقة شيري ترتدي نصف ملابس وقد أظهرت القسم الأكبر من جسدها وخاصة صدرها الذي دققت فيه داليا مطولاً لتتبين أمراً ساورها الشك في حقيقته، وهذا الأمر هو حمالة الصدر التي ترتديها السيدة شيري، والحقيقة التي تبينتها داليا هي أن ما رأته ليس حمالة وإنما هو وشم مرسوم على الصدر، جعله يبدو كما لو أنه حمالة، وفوجئت بعد أن دققت النظر وتأكدت من أن الصدر عارٍ تماماً، لكن الوشم جعله كالخفي، الخفي الذي سيرقى إلى مرتبة أعلى في هذه الليلة العاهرة.

كانت السيدة تلتحم بجسدها مع رجل لم تره داليا من قبل لكنه ليس بالتأكيد السيد حليم، لأن المحترم كان شبه عار هو

الآخر وقد امتلأ جسده برسوم وأوشام وأختام غريبة عجيبة لم تفهم منها داليا شيئاً.

كان السيد يقف خلف ذلك الداعية، الرجل الذي يبدأ بتراتيله الشيطانية الجديدة بعد أن أحضر لوحة أخرى ووضعها بجانب تلك اللوحة الموجودة على الحائط، كانت اللوحة الثانية دائرية الشكل، لونها أرزق ثم تبين لداليا فيما بعد أنها لوحة للكرة الأرضية وكانت بشكل بيضاوي تحيط بها أفعى سوداء منظرها مخيف يلتقي رأس الأفعى بذيلها في عملية التفاف شاملة للكرة الأرضية وضعها بجانب اللوحة الأولى.

ثم حمل السيد حليم اللوحة الأولى وقدمها لذلك الرجل الداعية الذي ناداه بعضهم «بأبي» ومنهم السيد حليم وهو يناوله اللوحة قائلاً:

- خذ يا أبي هذه هي.

- مسك الرجل اللوحة وعرضها على الجميع، كانت اللوحة تحوي صليباً مقلوباً والنجمة السداسية وأيضاً الجمجمة الماسية المشبوهة والهلال المنقوص.

- رفع المحتال اللوحة بكلتا يديه ثم نادى على حليم.

- يا حليم يا بني ماذا ترى في هذه اللوحة.

- الصليب المقلوب يا أبي والمعقوف أيضاً.

- ما يعنيه لك يا حليم.

- أن نرفض الأفكار الدينية التقليدية ونقدر الأفكار النازية العدوانية.

- أحسنت يا بني.

- وأنت يا إسماعيل ماذا ترى أيضاً.

- الجمجمة يا أبي.

- وما تعنيه لك يا إسماعيل.

- فيما مضى يا أبي كانت تعني الموت أو القتل، أما الآن فهي رمزنا للسعادة والنشوة، ونشرها بين أبناء الأفاعي ودفعهم إلى تعاطيها والتعامل بها ودفع أولاد الأفاعي إلى تعاطي المخدرات وخاصة الهيروين والكوكايين.

- باركك الرب يا إسماعيل.

- وأنت يا دانيال ماذا ترى في اللوحة التي وضعها أخوك على الحائط.

- أرى أملاكنا يا أبي، أرى أرضنا، أرى قوتنا ودهاءنا، أرى حكمتك أيها الحبر الأعظم وقدرتنا على أن نسيطر على أرضنا.

- بوركتم جميعاً يا أولادي، بوركتم يا أحفاد الأحبار، هيا بكم، هيا بنا هيا، هيا..

- المحاربون يتجمعون بهدوء حول المدينة المقدسة. شيطان الجحيم يصرخ.

وملائكته تهبط على الأرض لتنتقم.

الطغاة يحققون الخراب على أرض الحب.

الشياطين تتآمر لتقلب الجنة إلى رماد

قائد الحركة يختار من بين جماهير الشيطان

راية الجحيم إلى الأعلى

الشيطان يعبر عن كلمات الحرب والجنة

ترتعد من الخوف

سيختار الشيطان موقع المعركة الفاصلة

المعركة التي ستواجه قوى الخير وتفصلها لصالح الشر

سينشد الشيطان أغنية المعركة قريباً جداً

أغنية الشر

ليصبح السائد بين البشر

الشيطان سينتقم لنفسه

* * *

آه، آه، آه، حرقت قلب داليا، أعرف بأنني سأخسر كثيراً وأعرف أيضاً أنني سأتألم أكثر، وأعرف أيضاً بأنه سينقصني الكثير والكثير، وربما أجوع، ربما أعطش وربما أحتاج إلى مكان لأضع فيه قدمي، أو وسادة أريح عليها رأسي، ربما أجد بعضها وربما لا أجد شيئاً منها، لكني متأكدة بأنني لن أموت جوعاً ولو حدث ومت جوعاً وعطشاً لن أتنازل ولن أسمح لكرامتي

أن تمس ولا لكبريائي أن يجرح ولا لشرفي أن يهدر، سأتحمل العذاب والألم والمشاق ولا بأس في ذلك، فهذا أفضل بكثير من الاستمرار في هذا النفاق والخداع ومن الوجود في مكان موبوء عفن كهذا، آه لو كنت خارج هذا القمقم لهرعت وأبلغت الحكومة عنهم، ليعرف هذا الشيطان المحتال كيف ستمزقه، علي أن أفعل شيئاً، علي أن أتحرر، وحاولت داليا أن تجر قمقمها، وبدأت الثورة العارمة بداخلها، بدأت تتفجر، سيحدث الانفجار قريباً بدأت «اللا» تقترب من فمها وتندفع من مكامنها وقررت أن تفعل شيئاً.

علي أن أتخلص، إن دافعي أصبح قوياً، وهم الأهم، أيها الإنسان إن لم يكن في نفسك دافع فلن تنفعك الدوافع، هذا صحيح إنه الدافع وهل هناك أقوى من هذا الدافع، أليست جعجعة هذا الماكر أكبر دافع.

حرروهم بقوة الجحيم

من الجبل يخرج العبيد

سوف يحطم النعيم الجنة الملعونة

تتقدم الجيوش القوية

تحطم البوابات

وتدخل منتصرة

إن ملكنا.. ملك الجحيم

ملكنا.. ملك الجحيم

يجب أن يأخذ عرش الآلهة

الشياطين المسعورة

الملائكة تبكي

الشيطان يأمر باللهو المعربد

آلاف من المشبوهين المتوهجين يضجعون

يفشل الفردوس في حفظ الهدوء

عرائس الخطيئة اصغوا.. اصغوا

منهم تسعة رؤوس مقدمة

جدار الرخام أبيض

ينزف دماً

الجميع يجب أن يرى جهنم السماء

أثارت هذه التراتيل داليا، آلمتها، حطمتها، لم تكن تتوقع أن في الحياة مثل هؤلاء الأوغاد، وكأنهم بلا عقول بلا قلوب بلا تفكير نائمون، ينساقون وراء هذا المنافق الذي يسلبهم أموالهم وأعراضهم وهم مسرورون، يبتزهم وهم سعداء، يدمر أسرهم، يفرق بين الأب والابن ويبعد الأم عن ابنتها يتاجر بالأعراض وينحدر بالعقول إلى الدرك الأسفل.

- الخطأ خطأي، ولوحدي فقط، أنا من باع نفسه، أنا من اقتنع بكلام ذلك المحتال، ذلك الدجال، الخواجه سعيد، كيف قبلت ووافقت على القيام بهذه اللعبة النتنة، كيف، كيف، هل كنت في غيبوبة، هل كنت في حالة لا وعي، نائمة بلا عقل بلا تفكير، كيف قلت نعم، أكاد أجن لا أصدق، أنا.. أنا بعت نفسي، تخليت عن ذاتي، لا يعقل لا يعقل، أنا قبلت أن أكون دمية، الذنب ذنبي عليّ أن أتحمل كل النتائج المترتبة على

ذلك، أنا خنت روحي وجمدهما في هذا القالب في هذا القمقم، أنا، أنا المخطئة المذنبة، اللعنة عليّ أنا وحدي..

اللعنة عا.. وصمت صوتها للحظة، لم تكمل جملتها أو لعنتها على نفسها، جالت بنظرها في أرجاء الصالون، كان الظلام ما يزال مخيماً على المكان اللهم إلا بقعة الضوء الحمراء التي يجلس فيها ذلك المنافق مع أفراد جماعته وهم ما يزالون يرتلون تراتيلهم الشيطانية.

وأصدرت داليا صوتاً «لا» كلمة واحدة نطقتها بصوت مسموع ثم عادت إلى أعماقها لتؤكد هذه «اللا» مرة أخرى، لا.. وألف لا.. لا لن ألعن نفسي، لست المخطئة الوحيدة لست المذنبة، لست أنا، إنها الحياة، إنها الظروف، المعاناة، الألم، الجوع، الفقر، الحاجة هي من أجبرتني على القبول، الضعف، الوهن، هو من أجبرني على القبول، أنا لم أبع نفسي، فقط بحثت عن مكان للرزق، بحثت عن رزقي كي لا أشرد، كي لا أنام مع كلاب الشوارع، لست مخطئة، أنا، أنا، نعم أنا.

«وسقطت دمعة من العين الزجاجية وبكى الخزف، تصدع الخزف في داخل النفس المهشمة

اضطررت لهذا رغماً عني، لو أني رفضت ما سيكون مصيري، لو أني قلت لا.. ربما تكون النتيجة مختلفة وربما لا تكون، وقد تكون أسوأ مما أنا فيه الآن وربما أفضل، أنا في حيرة، ضائعة، مشتتة، أشعر بالضعف، بالضياع، لكني في النهاية لست مخطئة وأنا واثقة، ولأني لست مخطئة سأثور، سأنتفض، سأغير الواقع، سأحتج، سأرفض، سأثور، سأثور وفي هذه اللحظة سأفك وثاقي، سأحاول الوصول إلى الباب، وبمنتهى الحرص، سأخرج من هنا، وسأخرج من قمقمي وأعود كما كنت داليا الإنسانة، أنا إنسانة ولست دمية سأذهب إلى الخواجة سعيد وأعلمه كيف يكون الإنسان إنساناً، وسأعلمه بأنني إنسانة ولست دمية، وليذهب هو وأمواله إلى الجحيم، سأخبر الشرطة، سأقول لهم إن هناك من يضيّع الجيل، إن هناك من ينحدر بالعقول، من يدمر الشباب والشابات، من يدفعهم إلى الانحراف والضياع والإدمان عليّ أن أفعل شيئاً لإنقاذ وطني من هذا الوغد، هذا الأفّاق.

وبدأت داليا بالتحرك، كانت تحاول أن تجر نفسها وبمنتهى الحذر، تأكدت من أنه بإمكانها الوصول إلى الباب وتستطيع أن تمشي بكل أثقالها على هذا الطريق، هي الآن في مقدمة البهو بكل سهولة تتمكن من الوصول إلى الباب وقبل وصولها ستحاول كسر الخزف عن يديها، يديها المتيبستين، المشلولتين، اللتين تحولتا رغماً عنها إلى أيدي من زجاج لا فائدة لهما، وغير صالحتين للاستعمال، ستحرر أيديها وتفتح الباب وتخرج إلى النور إلى الحياة الصحيحة، إلى الحرية، وعندها تكون قد نجحت فعلاً وبصعوبة فائقة دفعت داليا نفسها إلى اليسار باتجاه الباب ونجحت في زحزحة قممها عدة سنتميترات، كانت تستغل المناسبة الجميع مع شيطانهم، مخمورون، الجميع في حالة لا وعي، وعلا صوت الموسيقا الغربية الصاخبة، وبدأ الجميع بالرقص، رقصوا بجنون وبحركات بهلوانية مثيرة للشفقة والحزن.

كان السيد حليم يرقص وهو نصف عاري، يرقص كالمهبول، كالأبله وبيده اليسرى زجاجة خمر وقد مسك بيده اليمنى إمراة (نصف عارية) من كتفها الأيسر، ثم ألصق جسده بها وخرج من البقعة الحمراء باتجاه ذلك الظلام الدامس الكائن في طرف

الصالون الذي يحوي ذلك البحر الأزرق على جداره، وأما السيدة شيرين فكانت تقف بجانب الدادا اعتدال وبيدها كأس خمر، كانت تكرع منه ثم تطلق بعد كل مرة ضحكة تثير ذهول الشاب الملتصق بها من بداية الحفلة.

ثم تقدم الأفّاق الذي ينادونه «بأبي» واقترب من الدادا اعتدال ثم بدأ بنزع ملابسها ببطء شديد ثم جرها من يدها إلى منتصف البقعة وأردف ذلك موسيقا خاصة وصاخبة جداً، بعدها مدت الدادا اعتدال يديها إلى كتفيه لتنزع عنه ذلك الجلباب الأسود الذي يرتديه، وبدأوا بنزع ملابسهم كل عن جسد صاحبه ترافقهم في ذلك الموسيقا الصاخبة إلى أن أصبحت الدادا اعتدال والأفّاق عراة وبدأوا بالقيام بطقوس غريبة وبعد ذلك مسك الأفّاق يد الدادا وخرجا من البقعة الحمراء ودخلوا إلى ذلك الظلام الدامس في الجهة نفسها التي دخل إليها السيد حليم. ثم تقدم إسماعيل ودخل البقعة الحمراء وتبعه شاب صغير في السن وبدأ الشاب الصغير بالقيام بحركات إغراء أمام إسماعيل، ما لبث إسماعيل لحظات حاول بعدها الاقتراب من الشاب الصغير ومداعبته.

كان إسماعيل متوسط الطول، ممتلئ الجسم، أصلعاً، أجرد الوجه خفيف الشعر على صدره ويديه ورجليه، وبدأ الرقص لكن في هذه المرة، كان الرقص من نوع آخر وبطريقة أخرى..

وأيضاً لم تكن داليا أقل رقصاً، بل بدأ الرقص الحقيقي في نظرها وكان رقصها أسرع فقد اجتازت منتصف المسافة المقدرة، التي تفصل مكانها المعتاد عن الباب الذي دخلت منه.

الجميع الآن عراة، الجميع مخمورون، يرقصون كل على هواه الجميع في غيبوبة واقتربت داليا من الباب، وجهاد ما زال خلف أسوار الحديقة.

* * *

كان جهاد قلقاً، متوتراً، مذهولاً، ساعة، ساعتين، والقلق مسيطر على روحه ونفسه، مضطرب من اللحظة الأولى التي أُطفأت فيها الأنوار في القصر. ومن قبل ذلك من لحظة قدوم تلك السيارات المحملة بأناس غريبي الأطوار.

مضت ساعتان وهو يدور حول أسوار القصر البعيد عن أضواء المدينة، غريب، قال جهاد أكثر من ثلاثين شخصاً متواجدين

الآن في هذا القصر، أصحاب البيت وعمال الحديقة والمرآب وغيرهم وعدد لا بأس به من الضيوف، ومع كل هذا يبدو وكأنه مهجور، لا إنارة ولا أصوات ولا حركات، إن في الأمر شيئاً، لا.. لا.. ربما لأنني ما زلت خارجاً، ومن يبقى خارجاً لن يستطيع فعل شيء، من يريد أن يفعل عليه أن يكون داخل السور داخل الحلبة لا خارجها ومن لم يرد الدخول إلى هذه الحلبة فالأمر بيده وبالتالي فهو غير راغب في العمل في الفعل المتوقع، وأنا، أنا حامي داليا لا أقبل لنفسي أن أكون خارجاً، أنا الكريم ولا أرضى بالبقاء بعيداً، ليست الأسود من ترضى بالضيم، وليست الأسود من تنتظر، أنا سأدخل، ولن أقبل إلا أن أكون داخلاً، سأقترب وسأدخل إلى الحديقة وألصق أذني على الباب لأسمع أحاديثهم وضحكاتهم ونكاتهم، .. لكن هؤلاء العمال والخدم كيف يدخلون ويجالسون أسيادهم، أمرهم غريب، حتى ذلك العجوز الهرم، حتى هو دخل معهم، وماذا عساه يقدم لهم ذلك الجثة، أسئلة كثيرة كانت تجول في ذهنه و لم يكن قادراً على تقديم الإجابة ولو على أقلها.

وقف وأعاد سبر المكان، كان نظره ثاقباً، حاداً، عيناه كما لو كانت لصقر أو لنسر، كان نظره كما بصيرته، نافذاً إلى الأعماق بعيداً بعد الأفق وقربه، كان قادراً على قراءة ما بداخل هذا القصر، قادراً لتقديم دراسة حية وواقعية وصحيحة لمجريات هذه الأحداث الغريبة التي تحدث، كانت أغرب من الخيال، يراها وهو خارجاً لم يكن خائفاً على نفسه إذا اقتحم، خائفاً عليها هي، يخشى أن تعكس نتائج هجومه سلباً على داليا، فيخسرها إلى الأبد لذا كان متأنياً، وصابراً وعاقلاً، لكن لا بد من الدخول، الدخول إلى الحلبة وليس اقتحام السور أو عبوره، سيدخل كما لو أن الأمر بسيط، سيهون الموت لأجل عينيها، وتوصل إلى حل، سيقفز فوق ذلك السور، كان عالياً، مرتفعاً، طويلاً، عريضاً سداً، حصناً منيعاً، يرهب من يفكر بالاقتراب منه يحيط بالقصر مع حديقته وكأنه سوار حديدي أسود حول معصم حياة لم يكن لونه كما هو معتاد أو كما هي ألوان الأبنية بل كان ذو لون أزرق قاتم يخيل إلى المرء أنه أسود، وفكر جهاد لبرهة ثم تقدم من الباب الحديدي أو باب استنبول كما كانوا يسمونه «جهاد وداليا والباقون»

والصاحب الحقيقي لهذا الاسم هو «داليا»، وخطر لجهاد خاطر، إنه يستطيع أن يتسلق من على الباب الحديدي وأكثر من ذلك، أنه يستطيع أن يحضر سيارته إلى جانب الباب تماماً، لكنه وقبل أن يقرر فتح باب سيارته ليهبط منها، لمح نوراً بعيداً يتجه نحوه اطمأن وتأكد من أن الفرج قريب، لكنه عاد ليكتئب وليحبط مرة أخرى عندما تذكر أن الحياة قلما تبتسم له وأن القدر دائماً يعارضه وأن الألم لا يقبل أن يبرحه.

- سيارة متجهة إلى هنا، قالها بصوت عالٍ ثم بلحظة واحدة جالت عشرات الأسئلة في ذهنه، هل أبقى داخل السيارة، هل أهبط وأقف بجانبها، هل أعيدها إلى مكانها أم أختفي، أنتظر القادمين وأقول إنني أتيت ولم أجد أحداً، وها أنذا عائد أدراجي، أقول إنني من أهل أو أصدقاء البيت، هل وهل وهل.. وقبل أن يتوصل جهاد إلى جواب حاسم اقتربت منه السيارة، دقق النظر في مرآة سيارته وشهق.. يااااا.. آه.. وهبط من سيارته وقف بجانبها، كان مبتهجاً مرتجفاً، قلقاً، متوتراً، وقفت السيارة بجانبه.. كانت سيارة الورشة، إنه ماهر وباسل.

تقدم منهما وسألهما بنبرة غريبة مليئة بالدهشة والاستغراب والاستفهام.. كيف أتيتما إلى هنا، حظي طيب، إنني في أمس الحاجة إليكما.

نظر كل من ماهر وباسل إلى بعضهما وأجابا باستغراب، وهل يسبب مجيئنا كل هذه الدهشة، ألا تعلم أننا قادمون؟

أجاب جهاد بسرعة

- من أين لي أن أعرف.. أ.. أ.. قولا.. لي من أين.. من أين..

تقدم منه باسل وابتسم ثم وضع يده على كتفه وقال بصوت منخفض أنسيت أم تناسيت بأن موعدنا بعد ساعتين، ألا تدري، لقد آن الأوان لأخذها.

- دقق جهاد النظر بوجه ماهر وباسل وكأنه أصيب بدوار أو كأنه قادم من عالم غريب النوع، ضائع الملامح، مجهول الهيئة، باضطراب تابع:

- أحقاً، ربما نسيت ذلك.

لكن ماهر استدرك.

- لا عليك، ربما تبادر إلى ذهنك هذا لأن السيدة اعتدال مانعت أخذ الدمية وبشدة وأكدت لنا بأنها ستبقى عندهم حتى الصباح أو بالأصح لا يحتاجوننا لصيانتها الليلة.

ونظر جهاد إلى صاحبيه ثم استدار ونظر إلى الباب الحديدي ثم تقدم منه وأمسك بقضبانه وألقى برأسه عليه، لا تقولوا دمية أرجوكم.. أرجوكم..، قالت لنا لا تعودوا.. لذلك أنا لم أذهب ولذلك أنا مضطرب وضائع وتائه، قالت هذا، نعم قالته، ولذلك أنا هنا، ساعتان، أتجول حول أسوار القصر وأراقب وأفكر وأتألم وأحلم بداليا.. الآن تذكرت لماذا أنا هنا.. اعتقدت فقط أنني هنا لأنقذ داليا.. كدت أنسى كل شيء، كل شيء إلا داليا المختفية في داخل هذا القصر، داليا المتألمة، داليا الإنسانة العظيمة، تلك الجبارة، تلك الصبية الجميلة الفاتنة، التي تتحمل السجن ساعات طويلة بل حيوات طويلة عاشتها في حياة واحدة تلك الأميرة المعذبة التي يحاولون أن يفقدوها إنسانيتها في عصر لا أناس فيه، في عصر الجميع فيه أشباه أناس، الجميع في آنية متحركة ووحدها إنسانة من لحم ودم، داليا الغالية أبداً أبداً أبداً.

سأهرب معها بعد هذه الليلة، ستكون آخر ليلة لها في هذه البلدة الظالمة، البلدة الجليدية، سأتزوجها وأجعلها أميرة حياتي وقلبي وروحي، لن أرسلها للعمل مرة أخرى، لن تعمل بعد اليوم، لن أسمح لعمي الخواجه سعيد أن يتحكم بها، لن أسمح لكم بوضع الخزف على جسدها المقدس جسدها الطاهر، لن أسمح لكم بعد اليوم باستغلال أرضها، باستغلال أشجارها وثمارها، باستغلال شجرتها المقدسة لن أسمح لكم بهتك عرض شجرة الليمون وشجرة الزيتون المقدسة سأحميها، سأحاول منع كل من يقترب منها، سأشن حرباً ضروساً من أجلها، سأحارب الدنيا بأسرها، لن أدعها وحدها، وليس من الشرف ولا من الرجولة أن أدعها وحدها، سأكون معها كل لحظة وفي كل ثانية، سأنصهر فيها، سأذوب في أعماقها، سأتلاشى في أرضها وأنام قرير العين تحت ظلالها الوارفة، حبيبتي سأرحل معها، سأرحل بعيداً، سأرحل مع داليا إلى البعيد البعيد، لن يكون لنا أي أثر هنا، سنختفي من هذا المكان القذر، أنتم مجرمون مجرمون، اشتركتم في بيعها مع ذلك المخادع، مجرمون مجرمون، بعتم إنسانيتكم، بعتم الروح التي وهبكم إياها الله، الله

خلقكم بشراً وكرمكم على جميع مخلوقاته، لكنكم أبيتم هذا التكريم، وفضلتم أن تكونوا دمى، فضلتم أن تكونوا زجاجاً وخزفاً وحديداً ونحاساً وقذارة، فضلتم ألا تكونوا أناساً، فضلتم أن تكونوا ممسوخين مشوهين، رفضتم الصورة الرائعة، رفضتم الصورة الصحيحة، رفضتم الجمال وتبعتم الشناعة ورضيتم أن تكونوا منابع للقذارة، حاويات لاحتواء القذارة، أنتم بعتم داليا، نعم أنتم أنتم أنتم.. بعتم الأصالة، بعتم الحياة، بعتم الحقيقة، بعتم كل شيء السماء والأرض، السماء والأرض وداليا..

وبكى جهاد وأجهش بالبكاء، استند إلى السيارة.

كان ماهر وباسل ينظران إليه يراقبانه ثم يتبادلان النظرات فيما بينهما، لكن الدموع في عيني كل منهما حالت بين الرؤية الصحيحة وبينهما، كانا عاجزين تماماً، عاجزين عن فعل أي شيء، أو هما من أقنع ذاته وروحه بالعجز، كل منهما على حدا، أقنع نفسه وأقنع صديقه الآخر، أو شقيقه أو رفيقه أو زميله، أو أي صفة يطلقها أحدهما للآخر، أقنعوا أنفسهم بأن الأيدي مشلولة غير قادرة على الحركة والأرجل، ستنهار، لم

يعد لها قدرة على تحمل جسد منهك متعب، ستخور قواه وتنثني من التعب والإرهاق والعجز الموهوم، ستركع وتخنع ثم يسجد الجسد، وتبدأ السياط بلسعاتها على هذا الجسد الساجد لكن دون أن يبدي أي ممانعة أو مقاومة أو رفض، لأنه مقتنع بأنه عاجز، عاجز، عاجز، وإن لم يكن في الواقع عاجز النفس ضعيفها، دنيئاً وضيعاً عديم الشرف لما ارتضى بركعة الذل حاول باسل أن يزيح عن وجهه قناع العجز الذي ظهر للحظة فتقدم من جهاد وأمسك رأسه وضمه إلى صدره، لكن جهاد استهجن ورمقه بنظرة حادة.

– لا أريد منكما عطفاً ولا شفقة، أريد منكما فقط أن تفتحا لي هذا الباب الحديدي الذي يحول بيني وبين إنسانيتي.

نظر ماهر إليه وقال بقوة وكأنه نهض لتوه من سجدته واستدرك بأنه قوي بل إنه الأقوى، لقد رفض أن يكون الساجد الخانع الراكع الذليل، قال: إننا نستطيع.

قالها بقوة وبثقة وبجرأة، لأنهم فعلاً يستطيعون، يستطيعون، ويستطيعون، إنهم قادرون، وقادرون، لكن..

- معنا في السيارة كل شيء، قالها ماهر ثم أسرع إلى سيارته، فتح بابها، كانت سيارة الورشة مجهزة بكل مستلزمات الميكانيك والكهرباء، وأخرج منها مفكاً وكماشة وأشياء أخرى، ثم تقدم ماهر مع باسل، وقطعا السلسلة الحديدية، قطعا الجنزير الحديدي العملاق الذي قُفِل فيه باب استنبول المزعوم وفُتح الباب الحديدي.

وكأن هموم الدنيا كلها، أزيحت عن كاهل جهاد وابتسم لصاحبيه:

- سأدخل سيارتي إلى جانب الباب الداخلي، وأنتما تبعدان سيارتكما إلى أول الطريق العام، أما بالنسبة للباب الحديدي فسيبقى مفتوحاً، إلى أن أعود بسيارتي وإن تمكنت من الهرب بهدوء، سنعيده كما كان، اتفقنا.

أجاب ماهر وباسل بعد أن هز كل منهما رأسه وقلب شفته السفلى.

- كما تريد

وتابع باسل الكلام: لكن ألا تفضل أن نكون معك في الداخل.

- إطلاقاً: أجابها جهاد بسرعة وتابع:

- لأنني سأنزع الخزف وأكسر الزجاج وأفتح قنالاً من المياه لأروي هذه الأرض العطشى، وأكيد حينها لن نكون بحاجة إلى حملها لأنها ستتنقل هي لوحدها وتمشي على قدميها.

- حسناً قال باسل: هيا فلنتكل على الله.

كان بارداً، عرض المساعدة كان بارداً، فاتراً، لا همة فيه الأمر يخصكم كما يخصني بالضبط، نساعد، تقولون نساعد، تقولون فقط لمجرد القول لا للفعل، تقولون نساعد وتصمتون، كي لا يقال إنكم لا تهتمون، لا تعبأون، تقولون وتقولون وستبقون تقولون، لكن أكيد لن تفعلوا، لأن الأمر في حقيقته لا يعنيكم وتخافون على أماكنكم عند الخواجه العفن، تخافون على القروش المعدودة عند هذا الفاسد السارق، الذي لا يعنيه من أمركم شيئاً، تخافون من غضب الخواجة سعيد ذلك التمساح النذل تخافون ولو أنكم لا تخافون لتحولت القروش المعدودة في أيديكم إلى ملايين من السبائك الذهبية، لكنكم..

وصمت جهاد، هز رأسه، وابتسم بسخرية ثم فتح باب سيارته مجدداً وجلس خلف مقودها وتقدم بها كما الاتفاق ووضعها بمحاذاة الباب الداخلي للقصر، نزل مسرعاً من السيارة واتجه إلى الدرج المؤدي إلى الباب خمس درجات فقط، ويقف خلف الباب، سيُفتح الباب من قبل الدادا ويتناول داليا يضمها إلى صدره بعد أن يكسر الخزف على الأقل عن قدميها لتتمكن من المسير والمشي كامرأة لا كرجل آلي.

سيخرج مسرعاً واعداً إياهم بأنه سيعيدها في ليلة غد أو في صباح غد، لا يهم، لا يهم، المهم أن يعدهم ولا يعود بعدها وليحدث ما يحدث، ولتكشف الحقيقة لا مشكلة سيكون قد هرب بعيداً هو وروحه، وليتحمل الخواجه ولوحده المسؤولية كاملة، وليذهب إلى الجحيم لن أكترث لأمره بعد الآن.

نعم وببساطة سيتم الأمر.

كان يتمتم بكلمات غير مفهومة، أو لا معنى لها ثم وقف بمواجهة الباب وحدق به، لم يستطع رفع يده، ولم يقرع الجرس، توقف وخفق قلبه وعادت الوساوس إلى نفسه، الظلام

الدامس في الداخل، الموسيقا الصاخبة التي أصبح يسمعها، قهقهات البعض، فوج البشر الذي دخل منذ أكثر من ساعتين، لم يعد يدرك شيئاً، فقد إحساسه بالزمن، أين نحن، وأين هم، ولماذا هذا الظلام وأصوات الطبول تقرع في الداخل، قصر لا ضوء فيه ولا حركة سوى صدى هذه الموسيقا الصاخبة المجنونة، وألقى بظهره على الباب ثم أسند رأسه مصغياً مدققاً، وكأنه كان يسمع صوت داليا من الداخل تناديه وتطلب منه النجدة، كان يسمعها تناديه بأعلى صوتها، المخنوق في أعماقها.

* * *

كانت داليا تحاول أن تجتاز الخطوة الأخيرة، بينها وبين قبضة الباب خطوة، بعد خطوة واحدة ستمسك القبضة وتفتحها وتخرج ثم تغلق الباب بهدوء، حتماً ستجد جهاد واقفاً خلف الباب ينتظرها، جهاد سيكون في الخارج، متأكدة بأنه لن يذهب، عيناه قالت بأنه لن يذهب، وروحه أكدت هذا، وروحها التي تبعته أيضاً أكدت هذا حاولت أن تزيح هيكلها بمقدار سنتميتراً واحداً، عيناها تراقب أكيد لا أحد يراها، لا

أحد يلحظ حركتها المتعبة، الجميع يعمهون في بحر الظلمات بعيداً بعيداً..

هناك صوت قدم آتية، متجهة إليها، إلى الدمية، ساورها الشك وأكدت لنفسها:

- إنها أوهام، الجميع متأكد من أنني دمية حقيقية، لا داعي للقلق والخوف.

الصوت يقترب يتقدم، من هو صاحبه، ليكن من يكون الجميع متأكد أنني دمية.

أصبح الآن قريباً منها، وقف بمواجهتها، خفق قلبها، انتابتها قشعريرة، ستحافظ على جمودها، على تحجر مقلتيها.

قلبها يخفق، دقاته تتسارع، ستنهار، بينها وبين الانهيار لحظة، ستمنعه عنها، إنه عارٍ، رجل عار تماماً، شك في أمرها إنه اللعين، المستر ديفيد «السيد»، الذي يتاجر بأبناء بلدها، ويعمل على إغواء الشباب وإغرائهم بالجنس بتقديم النساء الصهاينة لهم وبإجبارهم على الخروج عن طاعة أهلهم ونبذ قيمهم وأخلاقهم، وبالتخلي عن دينهم عن عاداتهم وتقاليدهم، يعمل

على تزويج الشباب من النساء اليهوديات بالتعاون مع الخواجة الكلب الذي يبيع أبناء البلد مقابل حفنة صغيرة من المال، يقيمون هذه السهرات لإغواء شباب الوطن وتخدير حماته وهلهلة بنيته الاجتماعية، وإرهاقه، ليتمكنوا من السيطرة على العقول لتهون عليهم السيطرة على الأماكن والحارات على الأبنية وعلى شجرة الليمون وشجرة الزيتون الصغيرة وعلى داليا.

إنهم خونة متآمرون، إنهم محتلون، أعداء الوطن وأعداء الله والبشر إن ذاك الحاخام الكلب هو الزعيم الحقيقي لهم والمستر ديفيد مع أبناء عمه هرتزل هم الممولون الحقيقيون الذين يغدقون على الخواجة وأمثاله، وجهاد يدرك هذا تماماً، وحذر عمه الخواجه سعيد أكثر من مرة، وهدده بإبلاغ السلطات، لكن في كل مرة كان الخواجه يتباهى ويتفاخر قائلاً بغطرسة:

- هل لديك دليل، ثم إن وصل الأرحام من الرحمة.

وفي مرات أخرى يحاول إقناعه بالتعامل معه وإغراءه بالمال تارة وبالنساء تارة أخرى، لكن جهاد وفي كل مرة يكرر رفضه بشدة.

- للمرة الألف أقول لك يا عمي إنني لا أقبل، لا أقبل بهذا النوع من التجارة، أيعقل يا ناس أن أتاجر أنا بأبناء وطني أيعقل هذا..

- ولماذا تسميها تجارة يا جهاد؟ إنما مجرد وساطة، وباختصار شديد ستلعب دور الوسيط بين الشباب والبنات، إنه عمل خيّر، ثم لا تنس بأن هناك الكثير من الأسر ستتشكل وتتكون بهذه الطريقة وهذا أمر في منتهى الحلال.

- حلال عن أي حلال تتحدث يا خواجة، تعمل على زرع بؤر للأشرار للمغتصبين هنا في عقر ديارنا وتقول حلالاً وأسراً، تعمل على إفساد جيل بأكمله وتدمير قلعة بنيناها من قيمنا وعاداتنا، من ديننا وأخلاقنا وتقول حلالاً، تزرع الجواسيس في منازلنا وفي حاراتنا الضيقة وتقبل لأبناء أولادنا أن يربوا في أحضان عاهرات هرتزل وتقول أسراً تتكون وتتشكل، وأنت

تعلم علم اليقين أن الولد عندهم لأمه وليس لأبيه، كما أنك يا خواجة، ويصمت جهاد للحظة وهو يدور حول الخواجة ثم يتابع كلامه:

إنك لا تتسامح في أتعابك إطلاقاً، بل تطلب رفع السعر عندما يكون الصيد دسماً، كما فعلت مع ابن اللواء، ألا تذكر المبلغ الذي طلبته، أتذكر كم كان مرتفعاً، مع أن تلك الفتاة كانت موجودة أصلاً في البلد، فكيف سيكون الأمر لو أنك أحضرتها من بولونيا كما فعلت مع ناتاليا «ناتشي» ألا تذكرها، ناتشي الدلوعة، /وليا/ تلك الفتاة التركية القادمة من سالونيك، ألا تذكر، بالذمة كم دفعوا لك مقابل إحضار ابن الوزير لها وتنظيمه في صفوف الجماعة إياها كما أنك لم تكتفِ بذلك، بل أردت أن تبيع داليا للمستر ديفيد ظناً منك أنها ستشارك في جذب وإيقاع بناتنا في حبائل الدجال الذي يزورك بين الفينة والأخرى، الدجال الذي يقولون له «أبي» استيقظ يا خواجة، استيقظ، استيقظ يا عمي استيقظ.

واستيقظت داليا على صوت انفجار مدوي، بدأ خفيفاً، نقرات متواترة على الخزف كانت خفيفة، ازدادت قوتها، شيئاً فشيئاً،

علت، ارتفعت، ارتفعت أصبحت لا تطاق، حاولت أن تصمّ أذنيها عنها، لكن الانفجار كان أقوى من الصمم، كان أقوى من جبل الجليد الملتصق بأذنيها الرائعتين والمحول على لسانها الساخن الرقيق، كانت الضربة قاضية أزاحت الخزف عن أغلى أجزائها فكان لا بد من النجدة، من الصرخة من لا لا لا لا خرجت ثائرة من الصميم.

- ابتعد عني يا نذل:

انفجار آخر علا مدوياً، تنبه النائمون له، ابتعدوا، تناثروا، تطايرت أشلاؤهم، ضجوا، صرخوا، خافوا، ارتعدوا، من من من من هناك.

من قال إن الحجر لا يتكلم، من اتهمه بالصمم، ها هو ينطق، أين هو، فلنحطمه، حطموه، اسحقوه، لا نريد حجراً ناطقاً.

قهقهوا، علت أصواتهم، كثرت نكاتهم، تجمعوا، لملموا الأشلاء المتناثرة، لملموا أنفسهم، التصقوا، تلاحمت أجسادهم القذرة، تمازجت فيما بينها مرة أخرى، ذابت الأجساد النتنة فيما بينها وتلاشت ثم تحولت إلى مادة خاصة بمصارف الصرف الصحي.

- قلت لك ابتعد عني يا نذل:

كان الخزف ما يزال يقيد يديها الرقيقتين، يديها البعيدتين عن جسدها، كانت إحداهما مرفوعة إلى الأعلى مثنية الكف والأخرى ما تزال ترتاح على غصن الزيتون الأخضر، كانت تبدو للناظر إليها وكأنها تشرع في رقصة فرعونية تهديها إلى جارها ذلك الفرعون الأكبر، متأملة منه إغداق المزيد من الدلال والحب والرعاية والحماية عليها، كان خطؤها أنها، تأملت منه خيراً، تأملت لأنها كانت واثقة من حبه، واثقة من نصرته لها، ألقت بحملها الثقيل على كتفيه، وألقت بنفسها في حضنه، سلمته روحها واستسلمت له وفي لحظة وجع استيقظت، تلفتت، فلم تجده، أين هو، لقد تبخر، كان حلماً، كان وهماً، لم يكن حقيقة، وكانت هي مجردة، وحيدة معزولة منزوعة السلاح.

-الله عليك يا فرعون، الله أكبر منك يا فرعون؟!

- أرسلك اللعين إلى هنا، لن تخرجي سالمة أيتها القذرة..

- للمرة الألف أقول لك ابتعد عني يا نذل..

- ولتكن المرة المليون، صيد دسم، نهايته في هذا المحفل وإلى الأبد..

كان المستر العاري يقف متواجهاً معها بل ملتصقاً، كان عارياً، وكان الخزف يغطي كل جسدها إلا الجزء المقدس حيث نزعه هذا المستر بضربة قوية قاسية موجعة، يداها مقيدتان وجزؤها المقدس عرضة للانتهاك.

- ابتعد عني أرجوك.

- تقدم الجمع منها، جميعهم اقتربوا، انطلقوا بخطوة، وكأنهم رجل واحد، السيد حليم والسيدة شيري، والدادا والطباخ والجميع الجميع.

كانوا عراة، أجسادهم مزركشة بالأوشام، مائلة إلى السواد، وجوههم لم تكن واضحة تماماً، كانت مشوهة، كأنها أوجه لحيوانات مفترسة كانت تلك الوجوه تشبه أي شيء إلا وجه إنسان حقيقي، كانت مخيفة، مفزعة، بعضهم وضع على رأسه قرناً لثور أو لتيس أو لحمار أو.. أو.. كانوا قطيعاً يسوقه راعٍ مفترس، تقدموا منها، اقتربوا أكثر، بأقل من ثانية جالت في

ذهنها آلاف الأفكار، بأقل من ثانية تبادر إلى مخيلتها ألف حل وألف طريقة للنجاة، لكن أهم ما فكرت به هو «الوحدة» «الوحدة» وحدة أجزائها، لو يتحد كل جزء فيها مع الآخر ستنتصر بكل تأكيد، وبسرعة اتخذت القرار. ستدافع عن نفسها، لن تقبل بهذه الخطوة المقتحمة لأرضها برفقة موسيقا المارش، وبسرعة تساءلت:

«كيف تحولت موسيقا الروك إلى مارش عسكري، من لحظات كانت لهم ألوان وأشكال، أما الآن وفي هذه اللحظات، لا لون لهم ولا شكل اللهم سوى رائحة النتن الصادرة عنهم، ما عساهم يكونون، لماذا تبدلت موسيقاهم عندما غيّروا أشكالهم الآدمية، إنهم يتجهون نحوي، يتهيؤون لاغتصابي ماذا عساي أفعل.

– أين أنت يا جهاد، أيها الحبيب المنقذ، لم لا تأتي اللحظة وتنقذني من مخالب هؤلاء.. إنني ضحية، ضحية الخواجه القذر، النجدة، النجدة، أين الحماة، أين من دفعني إلى هذا الوكر إلى هذا الجحيم.

كان الصوت مخنوقاً، لم يسمعه أحد، حاولت ألا تظهر القلق والخوف وصوتها المخنوق على ملامح وجهها الملائكي، وجهها النيّر، الأخضر، وجهها الحقيقي وجه الحقيقة الواحد، الحقيقة التي سيهدر شرفها بعد لحظات وصرخت بصوت عالٍ:

- ابتعد عني يا نذل:

لكنه ألصق جسده بها والتصق بجزئها المقدس وبدأ باغتصابها، صرخت بكت، حاولت فعل شيء، لم تستطع، يداها مقيدتان، الخزف يجعلهما ثقيلتين، رأسها ثقيل، لم تستطع تحريكه، لأن الخزف أثقله هو الآخر، رقبتها جامدة، مستقيمة لم تستطع تحريكها أو إمالتها،لسماكة طبقة الخزف، فبقيت مرفوعة، والرأس مستند عليها بشموخ وإباء، فقط كان فمها بدون خزف، وفقط كانت الأسنان خزفاً طبيعياً وكان اللسان من لحم ودم، وبدأ الاغتصاب بشموخ.

- ابتعد أرجوك، حرام، حرام، أما من منقذ، أين الحماة، أين أنت يا جهاد، يا جهاد، يا جهاد يا جهاد، أنا أغتصب، شرفي يهدر كرامتي تسحق، أواه يا ناس، أواه يا بشر..

ـــ ابتعد يا وحش، يا مجرم..

- اخرسي يا عاهرة..

قالها وازداد التصاقاً بجسدها، وازداد اقتحاماً لأرضها، لمملكتها المقدسة، كان كأي محتل أو غازٍ سفاح جزار بلا رحمة، بلا قلب، بلا شفقة، وصرخت

- الآه.. آه خرجت من النواة ووصلت إلى السطح فجعلت الشفتين ملتهبتين متقدتين تستعدان للثأر، فما كان منها إلا أن تناولت أنفه بأسنانها عندما ألقى برأسه على رأسها وجعل أنفه بمحاذاة فمها مستعداً للاستسلام للذة الذبيحة. ضغطت بأسنانها على مقدمته، ضغطت بأقصى شدة ممكنة إلى أن فصلت ذروته وبقي أنفاً بدون مقدمة، شبه أنف، تناثر الدم على الجانبين، وضع يده على بقايا أنفه، ابتعد عنها، نظر إليها بعينين يتطاير منهما الشرر، تقدم منها، مسكها بكلتا يديه، حدق بعينيها، خافت مما رأته، كان حقداً دفيناً موروثاً من أهله وعشيرته من قومه، كان هناك رغبة شديدة في الاغتصاب، رغبة كبيرة جعلته ينسى أو يتناسى الألم الصادر عن أنفه جراء قطعها

لمقدمته، هذه الرغبة الممزوجة بحقد عميق جعلته ينسى الألم والدم الأسود النتن الذي يسيل منه.

- ستدفعين الثمن غالياً.

قالها ثم رفع يده اليمنى وصفعها بقوة على وجهها الخزفي، فما كان من القناع إلا أن تصدع وبدأ بالانهيار ببطء شديد مصدراً صوتاً غريباً أثناء انهياره صوتاً يشبه صرخة بركان أو صوت الرعشة التي تصيب قلب الكرة الأرضية عندما تهدد بالاعتداء عليها، وأخيراً انهار الخزف وتحول هذا القالب الجميل، هذا التمثال الرائع إلى كومة من الزجاج المتجمع على الأرض. انهار الستار البراق وظهرت خلفه، الحقيقة المؤلمة ظهرت داليا، عارية تماماً، داليا هي الحقيقة الحزينة، كانت امرأة حقيقية خلف هذا الزجاج المتصدع المنكسر المنهار، كانت امرأة جميلة بل رائعة الجمال.

- أوه.. ما هذا؟!

- واه.. من تكون؟!

- واو إنها جميلة؟!

- ياي.. إنها جاسوسة.

- واي.. سيقضى علينا إن لم نقضِ عليها.

- آ.. لقد علمت، إنها مدسوسة من قبلهم.

- آي.. دعوني أنا من يبدأ..

- آه.. لا.. أنا من سيبدأ..

كانوا مشدوهين، مصعوقين، عبارات الدهشة والاستغراب والتساؤل والاستفسار، هي التي سيطرت في تلك اللحظة على هذا الموقف الغريب.

كانوا متجمهرين حولها، شكلوا حلقة وهي في المنتصف، كانوا عراة، وكان الأمر بسيطاً بالنسبة لهم، الدهشة سرقت الشهوة الرعناء منهم، تحولت شهوتهم إليها، واتجهت باتجاهها كانت عارية، لكنها أسرعت وتناولت الرداء الذي كان يغطي الدمية الخزفية، الرداء الذي كان يغطيها عندما كانت دمية، تناولته من بين الأنقاض، ألقت به على بقايا جسدها، لكن المفاتن المغرية

بقيت بارزة وبقي اللعاب يسيل كلما ازدادوا تدقيقاً بها وتمحيصاً بعفاتنها بمباهجها، كانت لذيذة ورائعة، وشهوة أيضاً.

- أنا من بدأ وسأكمل.. ابتعدوا.

قالها المستر ديفيد «السيد» بعد أن عاد وأمسكها بكلتا يديه وألصقها بجسده، حاولت الدفاع عن نفسها، استخدمت يديها المتحررتين، وقدميها، وفمها ورأسها، وصوتها وكل ما فيها، لكنها لم.. تفلح.

- تقدمت منها الدادا، واللعين الذين ينادونه «أبي»، مسكتها الدادا من يديها واللعين من أرجلها، وألقيت على الأرض، وأسقطت معها صرخاتها، أناتها، احتجاجها، رفضها للاستسلام، أسقطت معها اللا بعد أن أنهكت قواها.

- في البدء ستكون الطقوس ثم نبدأ بالوليمة وبعدها نقدمها قرباناً لأبانا، وليهوه،..

- آه.. كانت من الأعماق وصلت إلى سمع جهاد، اهتز جدار الصوت لديه، وأدرك هول الفاجعة..

- لقد كشف أمر داليا، يا الله، كن معنا.

كان جهاد ما زال ملتصقاً بالباب، يحاول استراق السمع، والتكهن بما يجري في الداخل، لكن الآن ولا مجال للشك، لقد كشف أمرها.

ازداد قلقاً واضطراباً وفكر بالاستعانة بماهر وباسل لإزالة هذا الجدار الفاصل بينهم.

- لا وقت لإضاعته.

قالها جهاد وأسرع إلى ماهر وباسل متأملاً خيراً في إنقاذ داليا، لم يكن يدرك أنها في هذه اللحظة تغتصب، واغتصبت بوحشية، اغتصبت وهي تقاوم الاغتصاب ولآخر لحظة، اغتصبت وهي تطلب النجدة ممن كان منهم الأمل ويا للأسف.

ترك الجسد الفاتن، الغالي، الحبيب في أيدي المستر ديفيد حاولت أن تقاوم، وقاومت، حاولت منعه، لكنهم كانوا كثراً، كلاً منهم مسكها من ناحية ما، كان جسدها بين أيديهم، حاولوا تثبيتها ليتمكن المستر ديفيد من اغتصابها بهدوء.

لم تستسلم، لكنه اغتصبها بدم بارد، فقط اغتصبها ليثبت للجميع أنه رجل، وكانت المفاجأة أنه رجل لا ينجب.

وفي لحظة المفاجأة هذه، كان جهاد برفقة ماهر وباسل قد اقتحموا الباب المؤدي إلى البهو الفسيح التي تمت فيه الجريمة، وكانوا قد استخدموا وسائلهم الخاصة في خلعه، وساعدهم في نجاح اقتحامهم الاتحاد والدقة، حيث لم يلحظ أحد من الموجودين في الداخل اهتزاز قبضة الباب أو يسمع صليل المفاتيح والمفكات، لانهماكهم في جريمتهم البشعة، ولانتظار كل واحد منهم أن يأخذ نصيبه من المتعة لإسكات الشهوة الذبيحة التي تلتهب داخل كل واحد منهم.

- لا تتحركوا من أماكنكم، القصر محاصر، والحماة منتشرون في كل مكان، قال جهاد هذه العبارات وتسمر في مكانه. اجتاز خطوتين فقط بعد الباب، وتبعه بخطوة واحدة باسل وأما ماهر فقد بقي واقفاً بالباب تماماً..

جحظت عيون الشباب مما رأوه، لم يصدقوا، وبدون إرادة منه أطلق جهاد رصاصة من المسدس الذي يحمله في يده والذي

أرهب الموجودين للحظة، تجمد الجميع، صمتوا، أخفوا عوراتهم بأيديهم القذرة الملوثة بالدم، للحظة ما بقوا جثثاً نتنة.

- قلت لكم لا تتحركوا، من يتحرك سأنهي حياته.

تهامس ماهر وباسل فيما بينهم همساً غير مفهوم، لكن كان كل واحد منهم يتساءل عن المسدس الذي يحمله جهاد، وعن القوة والجرأة التي اقتحم بها هذا الجدار، وعن الشجاعة الفائقة التي ظهرت عليه، وكأن هذا أهم من داليا.

- ابقوا في أماكنكم، أبعدوا أيديكم عنها، وأنت ضعي الرداء على جسدك وانهضي.

كان المشهد مثيراً، مؤلماً، للمرة الأولى يراها بهذا العري، لقد عروها جردوها من ملابسها، من نفسها، من كل شيء، من كل شيء، صعب هو الاغتصاب، وصعب خرق حرمة المرأة عندما لا تريد، صعب أن تقتحم وتفتح أبوابها رغماً عنها، ومن قِبَلِ عدوٍ نجس قذر، مسكينة داليا، أصبحت ذبيحة، لن أنسى في حياتي كلها هذه اللحظة القاسية، كيف أنسى هذا المنظر، ملقية على الأرض، ولعينان يمسكان بأيديها وأرجلها

ووحش مفترس، افترش أرضها واستراح عليها، أوه.. أوه يا الله، يا الله ما أقسى هذه الحياة وهذه اللحظة وحياة حبيبتي.

وأطلق رصاصة أخرى كانت طائشة، كما هو الآن.

- اقتربي.. قلت لك اقتربي.

وصرخ بصوت أعلى — أبعدوا أيديكم عنها، وإلا أفرغت هذا في رؤوسكم.

تقدمت داليا باتجاه جهاد، وتبادل ذلك الجمع العاري النظرات فيما بينهم ثم حولوها إلى داليا، وأخيراً تهامسوا.

- أبانا الكنز الموعود، الوعد يا أبانا، هل ضاع؟!

- أجابهم اللعين بهمس:

- إن لم نتمكن من إعادتها وهي حية، سنقتلها ثم نستوطن بها.

لكن المستر قال بصوت مسموع:

- وأي متعة يا أبانا سنحصل عليها من جسد لامرأة ميتة؟

- لا تكن أحمقاً يا ديفيد، نعيد إليها الحياة بطريقتنا وبمساعدة يهوانا..

وقاطعهم جهاد بصوته القوي:

- لا تتهامسا يا حثالة، وخاصة أنت، أنت أيها المستر اللعين، ها قد كشف أمرك، واتضحت الحقيقة، إنك تعمل لحساب هذا النذل.

«ويشير جهاد بيده إلى الأب» ثم يتابع:

لقد دفعك هذا الدجال اللعين للاتفاق مع الخواجة على هتك عرض حبيبتي واقتحام أرضها ثم سرقتها، وأنتما أيها الحقيران «ويشير بمسدسه إلى حليم وزوجته شيري» مثلتما دوريكما بإتقان تام، فعلتما هذا لتحقيق رغبة شيطانية زرعها في نفسيكما هذا المحتال الدجال لكن لا.. وألف لا، سأريق دماءكم العفنة هنا وسأجعل هذه الأرض مقبرة لكم.

ثم ينظر جهاد إلى داليا ويصرخ بصوت عالي:

هيا اقتربي، اقتربي، أقول لك اقتربي.

لكن داليا بقيت جامدة في منتصف المسافة التي تفصل جهاد عن العراة. كانت الدموع غزيرة، كل ينابيعها تفجرت، كل مصادر المياه من جوفها ثارت أنهارها طافت وشواطئها هاجت فتغيرت كل ملامحها، لم تعد كما كانت و لم تبق كما هي، فلم يميز جهاد بين تفاصيل وجهها، لم يعثر على عينيها الرائعتين، ولا على موضع للفستق اللذيذ ولا حتى على الإباء والعنفوان والشموخ.

- أتيت لأدافع عنك يا داليا.

ابتسمت له ابتسامة صفراء ونطقت بصوت غير صوتها.

- لقد تأخرت يا جهاد، فكُسر الخزف، وقُطِفَتْ البواكير، واستساغ في طعمها المستر مع كلابه، لقد باعني الخواجة، باعوني وأنت تعلم، جميعكم كان يعلم، تهاونتم، فخسرتموني، كنت وردة مشكولة على صدوركم، وكنتم أحبتي وما زلتم رغم ألمي منكم، رغم جرحي وقهري الذي تسببتم فيه، لكن القدر شاء أن أكون جزءاً منكم والقدر شاء أن تهاونتم في حفظ هذا الجزء في عيونكم وقلوبكم، أتبكون.. لا لا.. لن

يجدي الدمع نفعاً ولن يحقق لكم مكسباً، ثم يا جهاد البكاء للنساء، والدموع لغير الرجال..

وتتقدم من جهاد أكثر وتدور حوله ثم اتجهت إلى ماهر وابتسامة رقيقة ضائعة الملامح كانت قد تناثرت على جانبي ثغر مرتجف، مضطرب يبحث عمن يستقر عليه:

- لقد غرّك المال، وسحرك منظر الذهب البرّاق، فبايعت بيعي ووضعت يدك في أيديهم رغم علمك أنهم لن يأمنوا لك ولن يثقوا بك أو بالأصح لن يحترموك مهما ابتسموا لك، ستكون وضيعاً في نظرهم وتأكد.

وأكملت حديثها وهي تقترب من باسل لتبحر في عينيه وليتجمد في مكانه فيبقى مرتعداً، تائهاً، مشتتاً:

- أعلم أنك كنت ضعيفاً، ولا خيار آخر أمامك، لكن لو قلت لا لا. واحدة فقط، لا.. لمرة في حياتك، لو تجرأت فقط لأخذ موقف لو أعلنت العصيان لقرارهم، والاستنكار لجريمتهم البشعة، لو أنك فقط فتحت فمك، نطقت، أحسستهم أنك بشر، أنك إنسان لك لسان حي، لك فم

يتحرك لو.. لو.. لو لو لو.. لكنك كنت أخرساً، جباناً، انهزامياً، أصماً، جماداً، كنت وكأنك لست بشراً، لكن.. ألف آه تحرق قلبي وتمزق صدري.

وتتبختر داليا على الأرض الهشة، تتلفت وهي مشتتة مبعثرة، تبحث عن أجزائها التي ضاعت، فتتذكر لحظة اغتصبت فيها، ضاع شرفها فيها، كُشِفَ المحرم منها على ألد أعدائها، فتصيبها القشعريرة والبرد الشديد والخجل الأشد فتسرع وتخفي وجهها المعذب بكفيها الأبيضين.

- أتيت لأنقذك.

نطق جهاد بهذه الجملة وصمت، للحظة فقط، حافظت داليا على هدوئها ثم أبعدت كفيها عن وجهها وتلفتت، كانت تقف في منتصف المسافة بين الثلاثة ماهر وباسل وجهاد، في نقطة التقاء الأقطار التي تصل بينهم، على محاور أنظارهم كانت قريبة، قريبة جداً، وفي لحظة تخاذل أضحت أبعد شيء عن أنظارهم، لحظة تخاذل، حاول فيها المستر ديفيد مع الدجال اللعين الالتفاف من طرف آخر، من خلف الشبان الثلاثة

للاستيلاء على داليا والسيطرة على الموقف، لكن رصاصة لم يعرف من أين انطلقت أوقفتهم، فتجمدوا في أماكنهم، وهم ما زالوا عراة..

- من أطلق النار: يقول جهاد.

- ليكن من يكون، أجابته داليا، لكن في النهاية، عليك أن تشكره لأنه قطع الطريق أمام هؤلاء العراة، الذين حاولوا الالتفاف عليكم وخداعكم.

- لا تخافي داليا، إنني أراقبهم جيداً، كنت متيقظاً وانتظرت إلى أن أطلق النار أنا عليهم، لعلي أبيدهم..

-متيقظ، متيقظ.. ها ها ها.. متيقظ — م — ت — ي — قـ — ظ..

تضحكني هذه الكلمة يا جهاد.. تضحكني جداً، أرجوك لا تقلها مرة أخرى، لا تقلها، ما فائدة يقظتك ما دمت مشلولاً، غير قادر على الحركة كنت متيقظاً وبقيت صامتاً، لم تفعل أو لم تحاول فعل شيء، لا بل نقلتني بيديك هاتين إلى هنا، قدمتني

بيديك إلى من اغتصبني فأي يقظة تتحدث عنها يا جهاد أي يقظة.

وأسندت جسدها المتعب على أقرب جدار لها، وأرخت رأسها على أكتافه الصلبة وأطلقت زفرة.

- لنؤجل العتاب يا داليا، فلا وقت لدينا لإضاعته.

رفعت داليا رأسها عن الجدار واخترقت سهام عينيها قلبه وروحه فارتعشت شفتيه وتهدج صوته واهتز السلاح في يديه.

- كن قوياً، ابق قوياً، ولا تؤجل العتاب، فهذا هو وقته يا جهاد لا تدع السلاح يهتز في يديك، وابق كما تعتقد، متيقظاً.. على الأقل أمام نفسك..

لم يدرك جهاد ما تعنيه داليا، احتار في أمره، كزّ على أسنانه، تجمّع مع نفسه ثم انفرد، ارتفعت يده التي يحمل بها السلاح إلى الأعلى ثم انخفضت إلى الأسفل ثم عادت كما كانت إلى الوسط..

لم تنته المتاهة التي وضع جهاد نفسه بها إلا على صوت خفيف، همس غير مسموع.

- لصالح من تهدر الوقت يا جهاد.

-لصالح من؟

بدهشة والتفاتة صغيرة إلى اليمين كرر جهاد العبارة التي سمعها من ماهر.

-لصالح من؟

لكن ماهر لم يمهله، بل قطع عليه حيرته

- هيا يا جهاد، لا تجعل الوقت يضيع منا، كن حذراً يا جهاد..

نظر جهاد إلى الجمع العاري

- لا تتحركوا، وأنتِ «ويشير إلى داليا» أنت اخرجي مع ماهر وباسل هيا ماهر خذها، خذها، هيا وبسرعة.

كان الجمع العاري قلقاً، متوتراً، يتبادلون نظرات الحيرة.

- ماذا نفعل يا أبانا..

- انتظري يا اعتدال، عندما يخرجون سيجدوننا أمامهم، لا تخافي، لن يفلتوا من قبضاتنا، دعيهم يفعلون ما يريدون فنحن لهم بالمرصاد.

-وداليا؟

سأل إسماعيل

- لَهْ يا إسماعيل، داليا لنا، شاءوا أم أبوا، داليا ستكون بحوزتنا سنستولي عليها عاجلاً أم آجلاً.

- يبتسم المستر ديفيد ويهمس بأذن إسماعيل وينظر إلى الأب ساخراً مستهزئاً

- نستولي عليها، وما فعلته أنا، أليس استيلاءاً.

ينظر إليه الأب بغضب وحنق

- اصمت، اصمت يا ديفيد، اصمت، اغتصبتها، لكن لم تكن رجلاً كما يجب، كما أنك لا تنجب، ما نفع اغتصابك لها إن لم يثمر، اصمت اصمت وكفى هذياناً

ويتابع الأب:

- أين ذلك الأحدب، لماذا لم يظهر إلى الآن، ولماذا تأخر الإمداد وكأنه لم يجر أي اتصال.

- أكيد إنه كعادته نائم في المطبخ، كان عليّ أن أطرده من عمله، إنه دائماً لا يعجبني، أنت السبب في بقائه يا شيري.

كان حليم خائفاً، صوت طقطقة أسنانه جعل ما قاله مفككاً، غير مفهوم ممزقاً لا لون له..

- وتلومني أيضاً، ألا ترى كيف تصطك أسنانك إنك.. لم تكمل شيري حديثها لأن فحيح ذلك الأب أسكتها.

- كفى، كفى، لا وقت الآن للجدل، ألا ترون أنهم يأخذونها ويهربون أين ذلك السافل، أين هو، لِمَ لم يأتِ، وكأنه لم يتصل بأصدقائنا.

في الحقيقة كان الأحدب في المطبخ فعلاً، لكنه لم يكن نائماً، وكان يجري اتصالات لكن مع أصدقائه هو لا مع أصدقاء العراة..

ــ ألو . . . نعم. . . أنا الفارس، الحامي الخاص.

واعتدلت قامة الأحدب، وتبخر الشارب الكث المبعثر فوق شفته العليا وعلى أطراف فمه، وانتظم الشعر الأشعث على الرأس فلم يعد تائهاً و لم يعد للصلع وجود، بل ما وجد هو شاب وسيم لطيف، قوي البنية جميل المحيا.

وقف الفارس أو أبا حنون وقلّب رشاشه بين يديه، نظر إليه فانفرجت أساريره لتظهر جمال أسنانه وجمال السن الضاحك في فمه ورقة ابتسامته.

- هيا عليهم يا أبا حنون.

وخرج أبا حنون من المطبخ واتجه إلى «الصالون»البهو الفسيح كان يمشي ببطء وحذر شديدين.

وقف خلف الجمع العاري، كان ماهر وباسل يمسكان بداليا ويهمان بفتح الباب والخروج، وجهاد رافع مسدسه باتجاه الجمع العاري.

- صرخ باسل.. من هذا، هيا لنخرج.

- يا للسعادة، ما الذي أتى بهذا إلى هنا؟!

كانت مفاجأة حقيقية بالنسبة إلى جهاد، إحساس بالسعادة لا يوصف، إحساس وَلّد شعاع نور خرج من عينيه ليلتقي بشعاع آخر خرج من عيني أبي حنون، يتعانقان فيصدران صوتاً كالرعد وضوءاً باهراً يبهر الأبصار وينير البهو الفسيح الدامس الظلام.

- اخرجوا يا جهاد وأنا سأتولى أمر هؤلاء الرعاع.

كانت الجملة التي قالها الفارس أو أبا حنون أو الحامي الخاص، زلزالاً آخر عنيفاً هزّ أركان هذه البقعة بمن فيها.

يلتفت الجمع العاري إلى مصدر الصوت ويقولون بصوت واحد مرتجف مخنوق مهزوز ضعيف لا حياة فيه.

- أبا حنون.. من أنت.

يتابع أبا حنون غير مبال بحيرة الرعاع ولا بدهشتهم أو استغرابهم وكأنه لم يرهم قبلاً.

- قلت لك يا ملازم جهاد اخرج مع أصحابك أنا سأتابع هذه المهمة.

صدمة أو مفاجأة، جديدة، جعلت داليا تشهق من صميمها.

- ملازم.. أ أنت..

لم تكن مفاجأة فقط لداليا بل أيضاً لماهر وباسل، فكلاهما نظر إلى صاحبه مشدوهاً، محتاراً، أيخاف أيبكي أم يبتسم.

وصرخ أبو حنون، كان صوته عالياً، قوياً، جميلاً، واثقاً، انتشر في كل زاوية وبقعة من هذا البهو الفسيح.

- لكن يا سيدي.

- بدون لكن، قد يعترض طريقك في الخارج بعض من هؤلاء الرعاع وبقاؤك مع أصحابك من أجل داليا أنسب من بقائك هنا معي، لا تقلق سأعلم هؤلاء درساً لن ينسوه في حياتهم أبداً.. هيا اخرج وحافظ على داليا، إنها غالية علينا جميعاً، داليا لنا، منا وفينا، زهرة حياتنا وبهجة أيامنا، داليا الرائعة أبداً ستبقى لنا نحن أهلها، هيا يا جهاد خذها واخرج حالاً..

- يرمق جهاد الجمع العاري نظرة ثم ينظر إلى أبي حنون ويبتسم له، ثم يقدم له تحية عسكرية يستدير بعدها ويفتح الباب ويخرج مع صاحبيه وداليا ويغلقون خلفهم الباب.

* * *

في الخارج انحنى جهاد أمام داليا، ركع عند أقدامها، قبلهما وقبّل الأرض، رفع رأسه نظر إليها، بحث عن وجهها الأخضر، وعن بحرها الأزرق ثم صرخ:

- لا.. لا.. أنا سأصعد إليك، سأرتفع إلى عليائك، ابقي فوق، هناك شامخة، أنا من سيصعد، أنت تبقين كما أنت، لا تنحني حبيبتي، العظماء لا ينحنون.

ووقف جهاد ثم رفع يديه إلى مستوى رأسها، قبّله، ثم سحبه إلى صدره وضغط عليه، أراد له أن يخترق اللحم والعظم ويدخل ليستقر في عمق القلب.

- أحبك داليا، أحبك يا عمري، يا روحي، يا قلبي..

أبعدت داليا رأسها عن صدره ونظرت إلى عينيه ثم قبلت الخال المتربع على خده وهمست

- جهاد أنت..

لكنه قاطعها

- أنا لك، أنا لك، كلي لك داليا، كلي، كل ما فيّ، كل جزء مني أنا فداء لك، لا تقولي شيئاً ولا تسأليني عن شيء..

لم تمنع الدموع التي ملأت عيني ماهر وباسل السؤال والاستفسار عن المفاجأة التي حدثت، فقطع السؤال لهيب شوق عارم يجمع قلبين.

- ملازم جهاد.. لحساب من ومع من ولمن..

نظر جهاد إلى ماهر وابتسم

كانت ابتسامته غامضة، أثارت حفيظة ماهر، واعتبر أن جهاد استخف بهما أو تآمر عليهما، أو أن كرامة ماهر وباسل مست أو أن استهزاء جهاد بهما كان مقصوداً، فتقدم ماهر من جهاد، مسكه من زنده الأيمن بقوة سأله بلهجة حادة:

- ما العلاقة التي تربط بينك وبين ذاك الرجل، وهل كنا نحن مخدوعين، وهل تآمرت مع ذاك الرجل علينا يا جهاد.

لكن جهاد لزم الصمت ونظر إلى عيني داليا وكأن داليا فهمت ما جال في ذهنه.

- آه يا داليا، أبو حنون، كم هو رائع، صدقيني لم أعرف كيف أتى ولا متى ولا علاقته بما حصل، لكن جلّ ما أعرفه الآن هو أنه ضحى بحياته من أجلك يا داليا، ضحى كما كنت أنا سأضحي وما زلت، نعم إن ذلك الفارس استشهد من أجلك.

* * *

لم يخطئ جهاد، لأن الحامي الخاص ذلك الفارس الشجاع فعلاً سيصبح في عداد الأموات إن لم تأت فرقة النجدة التي طلبها.

-تأخروا كثيراً، نقلت لهم الوضع بدقة بالغة، ومع ذلك تأخروا.. هذا ما جال في ذهن أبي حنون أمام ذلك الجمع العاري، لذا كان لا بد من حل، من طريقة للخروج من هذا المأزق.

-وبدأت تراتيلهم الشيطانية تشتد:

اقتحموا البوابات

حرروهم بقوة الجحيم

من الجبل يخرج العبيد

من الجبل يخرج العبيد

أظهروا أنفسكم متولين الحكم

خوف الملائكة يقاوم

ولا شيء يوقف العاصفة

لا شيء يوقف العاصفة

يوقف العاصفة

يوقف العاصفة.. العاصفة.. العاصفة

ردد العراة هذه الكلمات ثم صمتوا، كان أبو حنون موجهاً سلاحه اتجاههم، تراءى له، للحظة، إنهم لا يخافون، أنهم لا

يخشون أحداً، لا الله ولا البشر. كان حذراً، حريصاً، مستعداً للحظة غدر ممن هم الغدر.

- لا تتحركوا، سأفرغ هذا في رؤوسكم، لا تتحركوا.

همس ديفيد بأذن الأب القريب منه:

- ما العمل يا أبانا؟!

- سنقدم ضحية يهوه لهذا اليوم..؟!

- ومن تكون يا أبي؟!

- أنت يا ديفيد.

- أنا..؟!!

كانت مفاجأة لديفيد، لم يصدق، بل ابتسم، اعتقد أنها فكاهة صدرت عن الأب العاري، حرك ديفيد يديه بعشوائية، وتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم ضحك وقال:

- أتمزح يا أبانا..

- لا لا أنا لا أمزح يا ديفيد، أنت ضحية يهوه، وسأعلن هذا لجمعنا المبجل.

ويلتفت إلى الجمع العاري ويقول:

- من أجل يهوه، من أجل أحبارنا العظام من أجل شيطاننا المقدس وتمجيداً لملك الجحيم، نعلن ضحية هذا الحفل في هذا المحفل، إنه المستر ديفيد.

كان حديث اللعين مفككاً مضطرباً، مرتجفاً، كان متلعثماً..

- لم لا تكن أنت أيها الأب.

قالها ديفيد وصمت.

لكن رصاصة أخرى خرجت من المسدس الذي يحمله أبو حنون أعادت كل منهم إلى وضعه السابق.

- حذرتكم، ألا تتحركوا، ستخرجون الآن من ذلك الباب، وأنتم هكذا بلباسكم الحقيقي، هكذا كما أنتم عراة، مفهوم، واحداً واحداً، وإلا أعلنكم جميعاً ضحايا ليهواكم النجس.

يبدأ الجمع العاري بالتحرك مرافقاً حركته لتراتيل الشيطان، كان الصوت خفيفاً وبدأ يعلو ويعلو ويعلو إلى أن..

سيختار الشيطان موقع المعركة الفاصلة

المعركة التي ستواجه قوى الخير وتفصلها لصالح الشر

سينشد الشيطان أغنية المعركة قريباً جداً

أغنية الشر

ليصبح السائد بين البشر

ليصبح السائد بين البشر

ليصبح السائد بين البشر

الشيطان.. الشيطان سينتقم لنفسه

وبانتهاء جملة الشيطان سينتقم لنفسه وبنهاية المسافة المقرر قطعها للوصول إلى الباب الذي أشار إليه أبو حنون

يمسك الأب المستر ديفيد ويستدير به إلى الخلف، وبحركة بهلوانية يدفع بها الأب المستر ديفيد إلى أبي حنون فيطلق الآخر النار من رشاشه

يسود هرج ومرج في البهو يتابع أبو حنون إطلاق النار عشوائياً، يسقط المستر ديفيد صريعاً والأب وكثيرون، لكن بحركة غدر مدروسة ومتقنة قام بها إسماعيل ودانيال وذهب ضحيتها دانيال بينما تمكن إسماعيل من الإحاطة بأبي حنون من خلفه وبكلتا يديه مما سهّل الأمر أمام الآخرين ليتقدموا وليمسكوا به وينزعوا السلاح منه.

- الملائكة تبكي

عرائس الخطيئة أصغوا

منهم تسعة رؤوس مقدمة

جدار الرخام أبيض

ينزف دماً

الجميع يجب أن يرى جهنم السماء

وتحرك اللعين في بحر الدم، لم يكن ميتاً، إنما مصاباً، بجرد مصاب، وعاد الفحيح مرة أخرى.

- لا تهدروا نقطة دم واحدة منه، إنّا بحاجة إلى دمه كله، لدينا كمية كبيرة من الفطائر، يجب أن تصنع أين اعتدال،..

وينادي اللعين على اعتدال

- اعتدال.. اعتدال.. علينا أن نصنع الفطير المقدس، الفطير، العيد قادم.. الخبز الأحمر اللذيذ.. اعتدال.. اعتدال..

اعتدال ماتت في سبيل يهوانا المقدس..

إسماعيل لا ترمه بالرصاص، لأن دم هذا الخائن النذل حلال ومناسب لعجنة اليوم، سنأخذ دمه وهو على قيد الحياة، الدم، الدم المقدس يا إسماعيل. وردد اللعين كلمة دم بتعب شديد وواضح، لكنه كان يتلذذ بنطقها، يستمتع بلفظها.

- الدم.. الدم يا إسماعيل، اخنقه، لا بل اتركه، نضعه على الآلة وهو حياً، نصفي دمه قطرة قطرة، أسمعت يا إسماعيل قطرة قطرة من هذا الخائن.

لكن إسماعيل لم يأبه لكلام اللعين، و لم يكتفِ برصاصة واحدة، بل انتشرت رصاصات الحقد في كل شبر من جسد أبي حنون، ذلك الرجل الطيب القوي الشجاع الشهم، الخير المطلق والعين اليقظة التي فقئت بيد الغدر، ليبقى ظهر داليا مكشوفاً دون حماية، كان أول من كشف أمر هؤلاء الرعاع، وتولى مهمة القضاء عليهم وتقديمهم للمحاكمة لكن من سوء حظه، أن تخلى عنه الجميع، إما بقصد أو بدون قصد، وترك لوحده في وجه العاصفة المدمرة التي حطمت حياته ودمرت كل ما فيه من خير وجمال وعطاء.

دمر نفسه من أجل داليا، أدرك الخطر الذي كان يحدق بها من أول لحظة أحضرت فيها إلى هذا الوكر، وكر هؤلاء الأفاعي، وقرر أيضاً أن يحميها أن يحافظ عليها، يصون لها كرامتها، يبعد عنها غدر هؤلاء المرتزقة، أحس بها وانتابه إحساس أن كرامته من كرامتها، وعزته من عزتها، وأنفته من أنفتها، لذلك قرر أن يضحي بحياته وبسعادته من أجلها، ويضحي بكل ما يملك من أرض معطاءة وسماء واسعة وقلب كبير.

- كان الخائن عميلاً، آ. آ.. آه أيها العميل، لن أدع دمك يجف على هذه الأرض بل سأغتسل ببحر الدم اللذيذ هذا، سأرشفه من على هذه الأرض سأرتوي بدمك أيها الخائن اللعين.

وزحف الدجال العاري اتجاه بحر الدم واغتسل بدم نقي، أحمر، قان، كان الثعبان يزحف على أرض وينفث سمه في نفس الأرض، كان فحيحه مخيفاً أصدر صوتاً كصوت الغراب.

- آ.. آه هيا يا إسماعيل، إلحق بهم وبسرعة وأعد إلينا داليا حية أو ميتة أسرعوا، لا وقت لدينا لإضاعته... وخرج إسماعيل وخلفه حليم وبعض النسوة اللواتي لم يصبن أو لم يمتن بعد.

خرجوا عراة، عراة من كل شيء، لا يملكون شيئاً على الإطلاق، مجرد كتل لحمية متحركة أو دمى متحركة، عارية، لا حس فيها ولا روح، لا ضمير يؤنب ولا قلب يتأمل ولا جسد ينبض بالحياة أو روح تطلب إطلاق سراحها.. خرجوا بسلاح واحد، رشاش كان مع أبو حنون، حملوا سلاح داليا ولحقوا بها ليهدروا دمها بسلاحها، ليهينوا أرضها بما تملك.

* * *

- لا وقت لإضاعته، أسرعوا لا وقت لإضاعته.

- قلنا لا وقت لإضاعته، أسرعوا لا وقت لإضاعته.

استقل كل من ماهر وباسل سيارة البيك آب الخاصة بمحل الخواجه سعيد انطلقت السيارة لكن في هذه المرة ليس إلى «قلبي لك» محل «مون كورا آفو» بل إلى بيت للحكومة، أي بيت وأية حكومة، المهم بيت له علاقة بسلطة ما، تنجد وتنقذ وتغيث..

ومن سوء حظ داليا، ومن قدرها المكتوب والمحتوم، قدرها المرسوم من قبل أن تُخلقَ، وتحيا، وتعيش وتكبر وتصبح شابة، وزهرة في حي كان كل شبابه يحلم بها ويطمح بالزواج منها، حي في يوم ما لم تلحظ حب صبيانه الصغار، فاعتقدت أنها تحب كل صبيان الحارة، لكن أياً منهم لم يحبها أو يرد الزواج منها والاقتران بها، لم تكن تعلم أن كل من في الحي اتفقوا على أن تبقى داليا الزهرة المدللة، الحمامة البيضاء، الحلم الذي يمتع شباب الحارة مدى العمر، أرادوا واتفقوا فيما بينهم أن تبقى داليا عذراء ليقال هذه هي حارة العذراء، هذا هو موطئ قدم

العذراء، هؤلاء هم جيران العذراء، أحبوها أحبوها وقُتل بعضاً منهم من شدة حبه لها، لكنها لم تكن تعلم، فتركتهم وذهبت في حال سبيلها، تبكي وتتألم وتئن، تهان وتذل، تجوع وتعطش تطلب النجدة ولا تجدها..

- ابتعدوا عني، أين الرجال، أما من حماة، أما من منقذ، ابتعدوا، دعوني وشأني، أسرع يا جهاد.. سنقتل أسرع.

صرخت داليا بوجه العراة، تبعوا خطواتها، لحقوا بها، كان حظها سيئاً، كما في معظم الأحيان.

- أه يا الله.. إلى متى.. إلى متى..؟!

- لا تخافي يا داليا أنا معك، والسلاح عندي، سننتصر عليهم

- لا أعتقد يا جهاد فهم كثر، ونحن وحيدَين.

- إنهم عراة يا داليا سنهزمهم، أما نحن فلا، فلا، ألا ترين الإيمان بالله وبالنصر كيف يملأ قلبينا، ألا ترين الحب الجارف الذي وحّد روحينا، ألا ترين أننا أكثر منهم، أقوى منهم، نحن

شعب واحد، وهم أفراد، أنا وأنت شعب كامل وجميعهم مجرد أفراد كوني واثقة بأننا سننتصر، كوني واثقة.

ودوى في الفضاء الرحب صوت القتل، صوت اليد الهمجية، كانت الصرخة قوية وكان الصوت عالياً، تفوق على صوت الرصاص.

كانت رصاصات العاري أسرع، حاول جهاد سحب داليا وجرها إلى السيارة، كانت السيارة قريبة، خطوات قصيرة تفصلهما عنها، كانوا خارج السور والعراة تبعوا خطواتهم إلى خارج السور، كان المفروض أن يصلوا إلى السيارة قبل خروج العراة، لكن جهاد طمأن قلب داليا، وقال لها، إن فارساً مقداماً سيتولى أمر هؤلاء العراة، كان متأكداً من أن الفارس سيموت، لكن ليس بهذه السرعة، لم يتجاوز الأمر دقائق معدودة، قليلة، لا تكفي لأن يقوم المرء بأبسط الأمور، بالنظر إلى شمس في وضح النهار وبالغوص في عيون حبيبة، عيون غائبة وحاضرة في آن واحد، دقائق كانت من العمر الأهم، حددت مصيره، ووضعت نهايته، دقائق كانت الفاصلة بين حياتين.

-أطلق عليه النار يا جهاد، ارمه بالرصاص.

-رميته... وربما رمية قاتلة.

- داليا .

- جهاد

- داليا، أصبتِ يا حبيبتي؟

- إصابة قاتلة

- علي إنقاذك

- إنك مصاب لا تستطيع

- إصابة قاتلة أيضاً

-قُتلنا

-قتلنا

-قُتِلْنا

- كنت قد قطعت عهداً أن أبقى معك إلى آخر يوم في الحياة، وها أنذا أفي بوعدي، كنت صادقاً داليا.

- إنك تنزف.

- وأنت تنزفين، سأسعفك حالاً.

- أنت من يحتاج إلى إسعاف.

- أنا لست مهماً، المهم أنت حبيبتي، أخشى عليك منهم.

- لا تخش سأموت.

- يأخذونك وأنت ميتة ويبنون هيكلهم على أطلالك الدارسة.

- جهاد إنني أموت، أشعر بالعطش.

لم يجب جهاد، فقط انتابته قشعريرة وأحس بألم، بوخز كوخز الدبوس.

- أنا عطشى.

- كان جهاد ملتصقاً بداليا، رصاصة واحدة اخترقت الجسدين في نفس المكان وفي ذات العضو كانت الطلقة واحدة والدم واحد، توحد الدم بعد فوات الأوان، عاد إلى طبيعته الأولى إلى حقيقته الواحدة، دم هو في الأصل واحد.

دم خلاصة من مائها وترابها، جسد أرضها موطنه، وروح ملجؤها، فضاؤها الرحب.

- جهاد أريد ماءً.

صوت مخنوق، يكاد لا يسمع، صوت متألم حزين مجروح، يحاول أن يبقى عالياً يبقى مسموعاً، لكن..

- قلت لك أريد ماءً.

- أنت من يهب الماء للبشر، الماء لديك حبيبتي.

- لدي ولا أملك منه قطرة، دنسوه، بأقدامهم القذرة، بنعالهم العسكرية الملوثة، لم يعد صالحاً للشرب، وأريد ماءً.

- بحوذتك حبيبتي.

- أطلب منك تنقيته، إعادة الطهارة إليه.

- ستعود الطهارة إليه ما دامت روحك تغتسل به..

- أريد مائي.

- سيعود إليك، سيعود وسترتوين.

- والآن.

-الآن سأرويك من ماء قلبي، اقتربي وارشفي سلسبيلاً عذباً من رحيقي.

-ورفع جهاد رأس داليا وأخفض رأسه، وقبلت عيناه عينيها

- ارشفي ما تجدينه من ماء في فمي

وأطبق شفتيه على شفتيها، ولعقت داليا لعابه، كان حلو المذاق طيب الرائحة، وأدركت بأن هذا هو عجين الروح، التي تخرج شيئاً فشيئاً، من سجن ضاق ذرعاً بها.

- جف النهر، وتيبست ضفافه.

- لا تقلقي ما دام النبع معطاءاً، لن تموتي من العطش، سأبكي أنهاراً، ولتشربي من مدامعي ماءً زلالاً.

وتدفقت الدموع من عينيه، أخفض رأسه وأخرجت هي لسانها وامتصت دموعه، ونهلت من هذا النهر إلى أن انتهى.

- تحجرت مقلتاك، ونضب ماء النهر وتجمد.

لم يجب، بل رفع رأسها إلى حضنه وضمه إلى صدره ثم أحاطها بكلتا ذراعيه، فسمع صوتاً مخنوقاً يلفظ أنفاسه الأخيرة.

- طالما أحببتك يا جهاد، وطالما تحملت صعوبة العمل عند الخواجة سعيد لأجلك أحبك يا جهاد.. أحبك.. لقد هزمت، لكن صوتي سيبقى هذه المرة موجوداً، عالياً، حزيناً، هزمت وها أنذا أعترف بذلك هزمت لأن أعدائي كانوا كثراً، لقد اتحد أعدائي عليّ، لم يكن لوحدتي الضعيفة أي نصر، تفوق أعدائي وهزموا وحدتي، تفوق ألمي الشديد على عقلي، تفوق بؤسي وحزني على عاطفتي وتعاستي على جرأتي، ويأسي على محبتي ورغبتي في الحصول على الحرية والاستقلال، وحزني النابع من أعماق أعماق أرضي على طلاقة لساني، فتهدج صوتي وضعف، فتهلهلت حجتي تفوق توحد أعدائي على وحدتي الضعيفة فهزمت، كانت أسلحتي ضعيفة، كانت فقيرة، لم تحقق لي النصر المرجو، فكسرت، تكسر الخزف، من الصعب أن يعود الخزف المكسور كما كان، لذا بقيت أرضي محتلة وأجزائي مغتصبة.

* * *

- احتفلوا يا بني الظلام فاليوم بداية عمر جديد في تاريخ هذه الأرض وتاريخكم.

إنه تاريخ الأذن لكم بالسيطرة على البشر لخدمة إلهكم وتوأمه

فأنا هذا الرجل.. وهذا الرجل أنا

اشربوا الخمور.. فلا بد للعقول من راحة

اشربوا الخمور.. وأقيموا الولائم وافعلوا ما شئتم.

لم يمت بعد ذلك الأب اللعين ما زال يسبح في بحر الدم، زحف إلى أن وصل إلى حطام داليا في بداية البهو وقريباً من الباب، صرخ على شيري كانت ما تزال عارية وإصابتها خفيفة.

- شيري أحضري كيساً أسوداً من أكياس القمامة التي تحتفظ بها الغالية اعتدال، سأباركها، سأبارك جثمانها المقدس الطاهر، لترتاح في نومتها الأخيرة.

يجهش اللعين بالبكاء، كان نحيبه يشبه صوت الغراب الأسود المشئوم، يتابع حديثه.

- شيري، عزيزتي، احضري الكيس وضعي به حطام داليا كوني حذرة، من أن تجرح يداك الطاهرتان سيما وأنك أصبت في قدمك، الحمد لله إنها إصابة خفيفة، ضعي الحطام في الكيس وأرسليه إلى ليا لترميه في تلك الحاوية الموجودة خارج القصر هيا، هيا عزيزتي، إني أتألم كثيراً شيري، أشعر وكأني أموت، إني أموت أيتها العزيزة شيري.

وأحضرت شيري، رغم ألمها من جرحها الذي ينزف، كيساً أسوداً خاصاً بالحاويات ووضعت به حطام داليا وخرجت.

* * *

كان حليم ملقاً على الأرض، أصابته رصاصة جهاد، كانت الإصابة قاتلة وإسماعيل يقف على بعد خطوات من جثته، كان ما زال رافعاً رشاشه وموجهاً فوهته إلى جهاد وداليا.

كانت داليا تنزف بشدة، نزيفها كان أسرع من نزف جهاد، أصبحت على وشك الموت.

وفجأة شعر جهاد بأن الرأس الملقى على صدره يميل إلى جهة اليسار فيدرك أنه قد فارق الحياة، فيرفعه بيده السليمة ويثبته

على صدره ويمسك يده المصابة ويضعها على خصر داليا ويده السليمة حول عنقها، ويلقي برأسه فوق رأسها، يقبلها ويغمض عينيه.

- سأنزف وأنا بجانبك إلى أن أموت، لا أريد حياة لست فيها. داليا، داليا، أيتها الرقيقة اللطيفة الوديعة الرائعة، سينتقمون لك لن يدعونك ترحلين هكذا، تأكدي سينتقمون، ماهر وباسل وآخرون كل الذين يحبونك سينتقمون لك ولي، سينتقمون، لأن للخيانة حداً تقف عنده، لن تستمر الخيانة ولن يستمر الغدر، ستعودين للحياة أجمل مما كنت، ستعودين للحياة، إلى غرفتك الصغيرة الرائعة وإلى حيك الصغير، ستلتقين مجدداً بصبيان الحارة لتزدادي حباً لهم ويزدادوا حباً لك، ستكونين في العيون، ستكونين أميرة حقيقية ولن تضطري للعمل في محل الخواجة سعيد أبداً أبداً يا غالية.

وأجهش جهاد بالبكاء، وعاد بذاكرته إلى اليوم الأول الذي عملت فيه داليا عند الخواجه سعيد، ذلك اليوم الذي أ درك فيه وجودها قربه، فأحبها وعشقها وأقسم بالدفاع عنها وحمايتها، والحفاظ عليها والإيمان بها مدى الحياة، أحس أنها الحقيقة التي

يبحث عنها، الحقيقة المرة التي يتنكرها الكثيرون ويخفيها البعض، الحقيقة الوحيدة والتي هي أن داليا أصبحت عبدة عند الخواجة سعيد، كان يعلم أنها ستباع ذات يوم، وابتيعت رغماً عنه، ودفع حياته ثمن بيعها وثمناً لخيانة عمه.

مؤلم تذكر الخيانة، ومؤلم أن يكون الخائن قريباً منك، ومؤلم أن تقع الخيانة على أغلى جزء فيك، أو عليك، مؤلم أن تكون أنت المخون، والخائن جزءاً منك.

وأحس جهاد بموت جزء منه، وأدرك بأن الأجزاء الأخرى تتبعها، فعرف أن الروح تغادر جسداً كان له، وأدرك أنه مائت لا محالة، لذا حاول أن يفتح عينيه المغمضتين عساه يلمح بصيص نور قادم من بعيد.

حاول رفع رأسه، لكنه لم يستطع، فعاد وأغمض عينين تتوقان لرؤية نور لشمس ربما تطلع في بداية نهار جديد.

ألقى برأسه فوق رأسها وضغط به، حاول أن يطبع قبلة على الرأس الحبيب، لكن القبلة بقيت معلقة على شفتين مرتجفتين

لأن طلقاً نارياً فاجأ رأسه، حينها فتح عينيه ليجد إسماعيل أمامه يفرغ ما تبقى من رصاصات قاتلة في سلاح كان لداليا.

ابتسم ونطق بأحرفٍ تائهة، جمعها إسماعيل ذاته في كلمة قالها لشيري التي تقف بجانبه.

يقول: إنه يرى الشمس تشرق، أكيد مجنون.

وفي هذه اللحظة ابتسم جهاد وسلّم روحه لروح داليا لتتعانقا وتنطلقان في الفضاء الرحب الواسع لاستقبال شمس النهار القادم، نهار غد.

انتهت

النور للثقافة

تقدم إلى قراء الأمة العربية سلسلة من الكتب السياسية والأدبية صدر منها:

هذه بداياتي	أحمد أبو سعدة
أرتريا من الكفاح المسلح إلى الاستقلال	أحمد أبوسعدة
أبوسعدة في شوارع العالم	أحمد أبوسعدة
حرب الجياع	أحمد أبوسعدة
ساعات من الحب	أحمد أبوسعدة
إبراهيم	آداب عبد الهادي
قضايا خاصة بالمرآة	آداب عبد الهادي
إمرأة من خزف	آداب عبد الهادي

تحت الطبع

وانتهى الحب	أحمد أبوسعدة
عزيزة	أحمد أبوسعدة
من هم اليهود	أحمد أبوسعدة
جنوب السودان وآفاق المستقبل	أحمد أبوسعدة
سوريا وطني الجميل	عبد الفتاح أبو سعدة
وكان سراباً	آداب عبد الهادي
إمرأة ورجلين	آداب عبد الهادي



كان الخوف ما يزال يقيد يديها الرقيقتين، يديها البعيدتين عن جسدها.

كانت إحداهما مرفوعة إلى الأعلى مثنية الكف والأخرى ما تزال ترتاح على غصن الزيتون الأخضر.

كانت تبدو للناظر إليها وكأنها تشرع في رقصة فرعونية تهديها إلى جارها ذلك الفرعون الأكبر

متأملة منه إغداق المزيد من الدلال والحب والرعاية والحماية عليها، كان خطؤها أنها، تأملت منه خيراً.

تأملت لأنها كانت واثقة من حبه، واثقة من نصرته لها

ألقت بحملها الثقيل على كتفيه، وألقت بنفسها في حضنه سلمته روحها واستسلمت له وفي لحظة وجع استيقظت

تلفتت، فلم تجده، أين هو، لقد تبخر، كان حلماً، كان وهماً، لم يكن حقيقة، وكانت هي مجردة، وحيدة معزولة منزوعة السلاح.

